كتاب الحج

الإسلام والحج:

الحمد لله الذي جعل الحج معتمر الإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله أكرمنا باتباع محمد - عليه الصلاة والسلام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله خير داعٍ إلى الهدى والسلام، اللهم صلِّ على محمد كلما عمر بيت الله بوفوده الكرام.

لقد جاء الإسلام والعرب يحجون على بقايا من ملة إبراهيم كانوا يطوفون بالبيت، ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون في عرفات، ويفيضون إلى مزدلفة ومنى، وفي أثناء ذلك يبيعون ويشترون وينظمون وينثرون ويتنافرون ويتفاخرون.

ولقد أقر الإسلام كل طيب ونبذ كل خبيث، فقد أقر الطواف والسعي والوقوف والإفاضة، ولكنه نقى الحج من شوائب الشرك والعادات الجاهلية، وعلَّم المسلمين مناسكهم كريمة نظيفة طاهرة وضيئة.

أولاً: كان العرب إذا طافوا بالبيت أو صلوا عنده جعلوا صلاتهم ودعاء طوافهم صفيرًا وتصفيقًا، فلما جاء الإسلام أبدلهم بالصفير والتصفيق ذكرًا ودعاءً وخشوعًا لله، وتوجهًا إليه ﷻ أن يمن عليهم بحسنة الدنيا والآخرة، وجعل الصلاة تكبيرًا وتسبيحًا ودعاءً، يقول الله تعالى يصف طواف المشركين: ﴿**وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال:٣٥]، والمكاء والتصدية هما الصفير والتصفيق، لذا منع الإسلام الصفير والتصفيق؛ لأنهما غوغائية وفوضى تفتحان وتمنعان المجال للغو والعبث، التفكير الهادئ السليم.

ثانيًا: كان على الحاج في الجاهلية أن يطوف بثوبٍ يحصل عليه من أهل مكة، ولا يجوز أن يطوف بثوبه العادي، وكانت قريش والحُمس وهم القبائل التي تسكن مكة يبتزون الحجاج فيغالون في أثمان تلك الأثواب، وكان في شرعة الحج عندهم أن من لم يحصل على ثوب من ثياب أهل مكة، فعليه أن يطوف بالبيت عريان، وكان منظرًا مزريًا أن ترى حول بيت الله الحرام رجالاً ونساءً يطوفون بالبيت عراة، فلما جاء الإسلام أعلن أن في إمكان الحاج

أن يطوف بأي ثوب، وعلى الوفود أن تأخذ زينتها (أي: أن تلبس أحسن ثيابها عند الطواف)، أما ثياب أهل مكة التي كانوا ملزمين بارتدائها، فإنه لا حاجة لهم بها خصوصًا وقد كان كثير منها يكون ممزقًا، ومع ذلك يباع بثمن باهظ، يقول الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف: ٣١]، ويتساءل في نفس السياق فاضحًا حيل سدنة الشرك: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفي الحجة التي كان أميرها أبو بكر ﷺ نادى عليٌّ ﷺ: ألا يطوفن بالبيت عريان، وتحطمت بهذا الأمر النبوي عادة خرافية شوهت وجه الحج الجميل الجليل.

ثالثًا: كان كثيرٌ من الحجاج يحضرون الموسم بدون زاد معتمدين على الشحاذة والاستجداء والتطفل، فجاء الإسلام ليفرض الحج على المستطيع والقادر على زاده ونفقته وراحلته، ونادى في الناس بقوله تعالى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البقرة: ١٩٧]، ومعنى الآية أن على الوفود أن توفر لنفسها الزاد وألا تنسى بعد ذلك أن ثمة زادًا آخر أسمى من زاد الدنيا ألا وهو زاد التقوى وطاعة الله ومخافته، وبهذا التشريع الحكيم خلا الموسم من مواكب العالة والشحاذين.

والحقُّ أن هذا الأمر الإلهي الحكيم يلزمنا تنفيذه في هذه الأيام؛ لأن كثيرًا من الحجاج إما بدافع الشوق أو بدافع المصلحة قد يحضرون الموسم بدون استطاعه تمكنهم من السكن الحسن والعيش الكريم بلا إسراف ولا تقتير والتنقلات بين المشاعر، فترى آلافًا مؤلفة من المتسولين على قوارع الطريق يفترسون الأرصفة ويزحمون المرور ويسدون الطرقات، وقد يشتغل بعضهم بالنشل والاحتيال ومعصية الله.

رابعًا: وكان لقريش مكان خاص يفيضون منه لا يفيض منه غيرهم، فرأى الإسلام في هذا نوعًا من الطبقية التي تتنافى مع المساواة في الإسلام؛ إذ الناس في الإسلام سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي فيهم على أعجمي إلا بالتقوى، فشرع الإسلام أن المفاض واحد لقريش وغيرها، فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٩٩].

خامسًا: وكان العرب إذا قضوا مناسكهم أقاموا حلقات الشعر والمفاخرة بالآباء،

فيلقي الشعراء قصائد المنافرات التي تشيد بمآل القبيلة ونفرها وأيامها، وربما أقيمت خيمة عالية لحكم يحتكم إليه الشعراء كالنابغة الذبياني فيفاضل بين القصائد، ويفضل بعض الشعراء الوشاء، فمنع الإسلام المفاخرة والمنافرة واستبدل بذكر الآباء ذكر الله تعالى، يقول ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٣].

سادسًا: كان العرب يذبحون في الحج عند الأصنام، ويطوفون حول الكعبة بين الأصنام، ويسعون بين الصفا والمروة بين صنمين إساف ونائلة، فحطم الإسلام تلك الخرافة المهينة للعقل، وصرف العبادة لله وحده، وجعل الذبح محرمًا في أي مكان به صنم أو ذبح فيه لصنم، وجعل للسعي معنى خارجًا عن إساف ونائلة، وصرفه إلى أنه المكان الذي ركضت فيه أم إسماعيل باحثة عن الفرج، وإذا الفرج مسرعًا من عند الله متجليًا في عين زمزم التي فاض فيها الري والبركة على العباد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

نعم لا أصنام بعد اليوم ولا نسك إلا في المكان الذي ذبح فيه إبراهيم عليه السلام ذلك الكبش العظيم الذي فدى الله به إسماعيل عليه السلام بعد أن صدَّق الرؤيا، ونجح في البلاء، وأثبت أن ولاءه للحبيب الأعظم ﷻ أعظم من حبه لصفيه وفلذة كبده الذي بلغ معه السعي وساعده في بناء البيت.

سابعًا: كان بعض سادة العرب يستغلون الموسم في زواج الجميلات يبحثون عنهن في الحاجات من بنات الزعماء وشيوخ القبائل، فمنع الإسلام عقد النكاح أثناء الإحرام ليتفرغ الحاج لعبادة الله وأداء المناسك بدلاً من أن يشغل نفسه بالنكاح والزواج.

وبهذه الأوامر العظيمة السامية الحكيمة صفا الحج من كلِّ الشوائب وأصبح ملتقى مباركًا تجتمع فيه وفود الله باخعة بعيوبها مستغفرة لذنوبها ذارفة لدموع التوبة بين يدي غافر الذنب وقابل التوب، تسأله الجنة وتستجير به من النار.

ألا ما أعظم الإسلام مدرسة إلهية تعلم الدنيا كلها دروس الإخاء والمحبة والعدل والمساواة، الله أكبر كلما عنت تلك الوجوه المباركة للحي القيوم غير آبهة بفوارق الجاه وحواجز المنصب والنسب وكنوز الفضة والذهب.. الله أكبر كلما خفقت على رءوسهم أعلام الإخاء مكتوبًا عليها بمداد الصدق: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

الله أكبر كلما سالت بطاح مكة بتلك الكتل البشرية مقبلة على رحاب الله ترجو توبته ومغفرته، ثم انقلبت إلى أهلها وهي ترجو من ربها نفحات القبول وعتق الرقاب وحسن الثواب.

حكمة الحـــــج

منذ آلاف السنين أمر ربنا ﷻ نبيَّه وخليله إبراهيم عليه السلام أن يؤذِّن في الناس بالحج، فصعد على الصفا والمروة ونادى بأعلى صوته: ألا إن الله فرض عليكم الحج فحجوا، فأسمع الله نداءه جميع الناس، فأقبل السعداء يلبون ذلك النداء الكريم رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله.

وظلَّ ذلك النداء مجلجلاً مُهيبًا بالمؤمنين أن يؤموا بيت الله ليبتغوا من فضله ورضوانه، وليعظموا حرماته وشعائره حنفاء لله غير مشركين به، وليذكروا اسم الله وهم ينحرون ويذبحون هديهم وقلائدهم ليطعموا منها البائس الفقير، ثم ليطمعوا القانع والمعتر شاكرين الله على ما سخر للإنسانية من تلك النعم، يقول الله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وظلَّ الحج وسيظل بمشيئة الله مؤتمر المؤمنين الأعظم ومجتمع المسلمين الأسنى، يجتمعون فيه ليحققوا لأنفسهم منافع المعاش والمعاد، وليكون دينهم دوحة الأمن يتفيأ ظلالها ركب العباد، وليظل بيت الله الحرام مثابةً للناس وأمنًا، يرون من آياته البينات فيتخذوا منه مصلى.

ولقد لاحظ أشياخنا المفسرون حول آيات الحج ملاحظة دقيقة خلاصتها أن آيات الحج وردت في ثلاث سور، وهي سورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة الحج، ففي سورة البقرة ذكر الله -تعالى- بناء البيت ودعاء إبراهيم، ثم أتبعه بآيات حول صفاء التوحيد والخلوص من الشرك، وأن التوحيد هو وصية أنبياء الله منذ كانت النبوة، كما ذكر الحج في سورة البقرة في موضع آخر بعد ذكر الجهاد وقتل المشركين ورد عدوانهم وبذل المال في سبيل الله، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لله فَإِنِ انْتَهَوا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ۞ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۞ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣- ١٩٥].

إنَّ قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ لا يعني ما يفهمه كثير من الناس: لا تعرضوا أنفسكم للقتل والموت، فهذا المفهوم لا موضع له هنا، ولكن المعنى الحقيقي هو ما فهمه أصحاب الرسول الله ﷺ، ومعناه: لا تتركوا الجهاد بأنفسكم وأموالكم، فينتصر عليكم العدو ويستحوذ على دياركم ويدمر دينكم ويهلككم.

أما آيات الحج التي وردت في «آل عمران» فيتبعها ربنا بحثِّ المسلمين على وحدة الصف والاعتصام بالله والحذر من مؤامرات اليهود والأعداء بتدمير وحدة الصف، يقول الله تعالى: ﴿وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وبعدها بآيتين يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٠- ١٠٣].

وأما في سورة «الحج»؛ فقد بدأ الله السورة بذكر مشهد مروع تقشعر منه القلوب، يقول ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١، ٢]، وبعد أن ذكر آيات الحج والأضاحي أتبعها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ

﴿يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۞ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٨، ٣٩]، ثم ختم ﷻ سورة الحج حاثًّا على الجهاد وإقام الصلاة والاعتصام بالله، يقول تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وخرج الأشياخ من هذه الدراسة المقارنة بأن الحج إنما شرَّعه الله ليحقق عدة أمور:

أولاً: أن يثير في المسلمين روح الجهاد والتضحية في سبيل الله، وينتهز الموسم لإنقاذ المسلمين في كل مكان من الاضطهاد والفتنة، وأن توضع الخطط لقتال الأعداء عامة وقتال أولئك الذين يلوننا من الكفار خاصة.

ثانيًا: أن يتخذ الحج درسًا في الأخلاق والفضائل ودورة تربوية أخلاقية لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال ولا مجال فيها لأي عبث بالأمن تحقيقًا لقوله تعالى وهو يصف المسجد الحرام: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [الحج: ٢٨].

ثالثًا: أن يسعى الدعاة في الموسم بكل جهدهم لتثبيت عقيدة التوحيد وبيانها ونشرها وتصفيتها من كل شائبة؛ لأن التوحيد هو عماد الأمر ودعوة كل الرسل، وهو حق الله على العبيد في مقابل غفرانه ورضوانه وجنته.

رابعًا: أن يحاول كل حاج في الموسم ربط نفسه بأوامر الأخوة مع كل حاج في الموسم العظيم؛ لتحقيق الوحدة الإسلامية، وغرس الإخاء تحت ظلال الإيمان؛ إذ بهذا الإخاء تكون الوحدة ويكون النصر.

خامسًا: أن تحقق الوفود حكمة الحج التي لخصها الحق ﷻ في ثلاث كلمات ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]. وقد لاحظ أشياخنا المفسرون أن كلمة (منافع) جاءت نكرة ليراد بها كل المنافع بأنواعها، وجاءت على صيغة منتهى الجموع إشارة إلى تعددها وكثرتها.

سادسًا: أن يشعر كل حاج أنه أقبل من دياره تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام،

وما دام مدعوًا إلى رحاب الله فليقدر قدر الداع ﷻ، وليسلك على مستوى الدعوة والنداء، وليتذكر في كل مشعر ما كان فيه من كلمات ومواقف، فيذكر في مقام إبراهيم عليه السلام موقف ذلك الشيخ الجليل وهو يرفع قواعد البيت، يعاونه ولده الغالي الذي بلغ معه السعي، وليتذكر في زمزم ساعة الفرج التي أعقبت لهفة الوالدة الواهة وهي تركض بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم ليتذكر عند الجمرات وفي المنحر ذلك البلاء العظيم الذي ابتلي به إبراهيم عليه السلام حين رأى في المنام أنه يذبح صفيه، فصدق الرؤيا وأسلم أمره لله وتل ذلك الغالي للجبين، فما هي إلا لحظات وإذا الفرج القريب وإذا الفداء الغالي ذبح عظيم من نعم الجنة، ألا ما أجمل الحج مهب نفحات ومنزل رحمات ومسرح ذكريات وتعارفًا على عرفات وفوزًا في منى بأحلى الأمنيات.

(١) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

منذ آلاف السنين قام سيدنا إبراهيم عليه السلام على الصفا وأذن في الناس بالحج مستجيبًا لأمر الله، فأسمع الله نداءه كل أهل الدنيا، وأقبل السعداء يهتفون لبيك اللهم لبيك، ومنذ ذلك الوقت والناس يأتون من مشارق الأرض ومغاربها رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

لقد كان الحج وما زال مؤتمر الإنسانية الأعظم يجمعها في رحاب القبلة، ويسير بها إلى المناسك في مواكب النور والتوبة والقبول، ويكوِّن منها وحدة متماسكة تسد على الشيطان دروبه وتفضح أساليبه وعيوبه، ففي مؤتمر الحج الأكبر يتجلى لعينيك أعظم هدفين من أهداف الإسلام ألا وهما تحقيق كلمة التوحيد وتحقيق وحدة الكلمة.

الله أكبر تنبعث كلمة التوحيد من ملايين الأفواه الوضيئة تارة بلفظها الصحيح وتارة بمعانيها الشريفة المتعددة لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

الله أكبر كم ترتكس الشياطين وهي ترى وساوسها تتحطم في مشاعر الحج على صخرة الإخاء الإلهي العظيم حين تحاول مهاجمة الصفوف الربانية فلا ترى فيها ثغرة من ثغرات

الشهوات ولا طريقًا من طرق المعاصي.

هنالك ترى بعينيك حربًا غير متكافئة بين مواكب الإيمان وليها ومولاها الله المهيمن العزيز الجبار وبين فلول الشيطان مذعورة تلوذ بإبليس، فيحطم آمالها بإجابته المستخذية، والتي وردت في القرآن الكريم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، ويزيد في حسراتهم حين يعلن ضعفه بين أنصاره وعباده فيتبرأ من شركهم وعبادتهم له كما ورد في الآية الكريمة: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

هنالك ترى الشيطان في المشاعر المقدسة وهو يرى كرم التواب وعتق الرقاب وإخاء المؤمنين الأحباب، فيتذكر حماية الله للمؤمنين وولايته للمتقين وقولته العظيمة الخالدة لأي شيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

لا غرو أن تعود وفود الرحمن وضيوفه وقد عقلوا آيات ربهم واستوعبوا وصايا رسولهم وتمثلوا كتاب الله يناديهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۞ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٠- ١٠٣].

لقد درَّب الحج ضيوف الرحمن تدريبًا عمليًّا على اتخاذ كلمة التوحيد سبيلاً إلى وحدة الكلمة، وذلك ما كان يحرص عليه رسول الله ﷺ حين أوقع أحد اليهود بين بعض شباب الأنصار من الأوس والخزرج، فهاجت نفوسهم وتحركت الفتنة لولا أن أقبل رسول الله ﷺ يذكرهم أن التفرق كفر ويقول لهم: «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»، وروى الترمذي أن عمر ﷺ أنه قال وهو يخطب في الجابية: إنَّ رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا فقال: «**من أحب منكم أن ينال بحبوحة الجنة؛ فليزم الجماعة**».

ألا ما أعظم الإسلام مدرسة إلهية عليا تعلِّم كل بني آدم دروسًا نظريةً وعمليةً، فإذا كنا

نتعلم في كتاب الله وسنة رسوله نظريات المحبة والرحمة والمساواة وصنائع الخير والمعروف، فإننا نتعلم في الحج وسائر العبادات دروسًا تطبيقية لهذه النظريات حين تبدو لعينيك آلاف الآلاف من المؤمنين وقد سالت بهم بطاح مكة سيلاً مباركًا، وقد عنت وجوههم للحي القيوم، واستشعر كلٌّ منهم أن كل مؤمن على وجه الأرض هو أخوه، فلله موقفهم المبارك المقدس وقد أزالوا من بينهم فوارق الجاه والنسب وحواجز الغنى والنسب وكنوز الفضة والذهب، ولم يعد يملأ فكرهم إلا دروس الإيمان تعلم الخليقة كلها رحمة العبد للعبد ونبذ الحسد والحقد والانتظام في سلك أخوة الإيمان؛ حيث ترفرف على ضيوف الرحمن أعلام الهدى ودين الحق مكتوبًا عليها بمداد الصدق: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾.

لقد كان رسولنا ﷺ أحرص شيء على وحدتنا لنرد عن حمى ديننا هجمة الكفر التي لن يقر لها قرار حتى تردنا عن ديننا إنْ استطاعت ولن تستطيع بعون الله، قال رسول الله ﷺ: «**يد الله على الجماعة**»، وروى أبو داود في سننه أن رسول الله ﷺ قام في الصحابة فقال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة (يعني المسلمين) ستفترق إلى ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه**».

وما أكثر ما وصانا ربنا ﷻ بلزوم الجماعة ونبذ الشذوذ، فقال ﷻ: ﴿**وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ولرسول الله ﷺ في هذا المجال عبارات فيها من روعة الإيجاز وسمو التصوير ما يسحر اللباب، فمن ذلك قوله: «**إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية**»، وقوله: «**مَن شذَّ شذَّ في النار**»، وقوله: «**إنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد**»، وقوله: «**عليكم بالجماعة، فإن الله لم يجمع أمتي إلا على الهدى**».

ولقد كان تخطيط الكفار لئيمًا خبيثًا حين جعلوا شعارهم في معركتهم معنا: «**فرق تسد**»، فكان من نتائج ذلك الخصام والانقسام ما نعانيه في هذه الأيام من ضياع على دروب الخلافات مما أثخن الأمة وأطاح بالطاقة، وجعل بأس المسلمين بينهم، وقد جاء الحج أبلغ رد على تلك السياسة الكافرة؛ لأن كل ركن من أركانه وكل واجب من واجباته درس في وحدة

الكلمة والاعتصام بحبل الله المتين، وحسبك أن تلقي نظرة على أهل عرفات لترى أجل مجتمع وأعظم مؤتمر يشرفه سمو القصد وتعظمه أعلام الإخاء في الله.. ألا ما أعظم الحج ردًّا بليغًا على مكائد الكفرة ومظهرًا صادقًا لعظمة الإسلام.

(٢) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

كان رسول الله ﷺ يتخوف علينا أمورًا خطيرةً، ويحذرنا أن نقلد الأمم السابقة التي غيَّرت شرائعها وحرقت كتبها وفقدت دينها، حذَّرنا عليه الصلاة والسلام أن نبالغ في حب الدنيا، وحذرنا من كراهية الموت ومن العزوف عن الجهاد، وحذرنا من إقبال الدنيا علينا خشية أن نتنافسها فتفتننا كما فتنت الأمم الغابرة، وحذرنا أن تستبدل بصراط الله طرقًا تبتعد بنا عن الجادة وتضل بنا عن سبيل الله، وحذرنا من فتنة الدنيا وفتنة النساء، ولا غرو فرسولنا ﷺ كان في حبنا كما وصفه ربه ﷻ بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وليس أدل على صدق النبوة المحمدية من أن كل ما حذرنا منه نبينا ﷺ قد تحقق وبدا للعيان كأنه فلق الصبح، فقد تنافسنا على الدنيا حتى فتنتنا، وجعلناها غاية فكرهنا من أجلها الموت، وأخلدنا إلى الحرص المردي والشح المطاع، ثم كان ما حذرنا منه من الانقسام والجري وراء المضلين وإغواء الشياطين والملحدين حتى تركنا جادة الصراط المستقيم، واتبعنا السبل المضللة فتفرقت بنا عن صراط الله، وأخيرًا وقعنا في حبائل الشهوات عامة والنساء خاصة، فأسأنا بذلك استخلافنا وما أنعم به ربنا علينا، فأصابنا الوهن بمعاصينا وصرنا غثاء كغثاء السيل، وتحقق ما خوفنا منه رسولنا ﷺ حين تداعت علينا الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها.

ولقد لفت نظري في الحج أنه درس إلهي عظيم في محاربة الانقسام وفي تحدي الشيطان وفي غرس الإخاء الإسلامي والمحبة الأخوية حتى إن الحاج الموفق ليعود وفي قلبه كل معاني الصفاء والإخاء والحب والخالص لأمة محمد ﷺ والحنين الصادق لأقطارها والتفكير الجاد في إغاثة كل مصاب منها وكشف كل غمة عنها وحمل راية الجهاد لإنقاذ أرجاءها ليكون الدين كله الله، ولتكون كلمة الله هي العليا، ولتظل كلمة الدين كفروا السفلى.

إنَّ جميع أعمال الحج مظاهر وحدة الإسلامية ودروس أخوة ربانية ومنافع دنيوية وأخروية.

وإني ملقٍ هنا ضوءًا على رجم إبليس؛ لأنه المنسك الذي ينسكه الناس ومعظمهم غافل عن حكمته، وذلك لما يكتنفه من زحام قد تزهق فيه الأرواح.. كثيرون من الحجاج يرجمون الشيطان ويكبرون على كل حصاة ترجم لكن الخطر من حولهم يستحوذ على خواطرهم فينسيهم حكمة الرجم.

لقد تعرض الشيطان لسيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما توجَّه إلى منى ليصدِّقَ الرؤيا ويَصْدُقَ الوعد مع ربه، وكان الشيطان يبدو لإبراهيم عليه السلام تارة في ثياب الواعظين الناصحين وتارة في ثياب المهددين المتحدين، لكن إبراهيم عليه السلام رجم الشيطان وهزمه غير عابئ بوعده ووعيده.

إنَّ رمي الجمار معناه قطع كل علاقة مع إبليس، وقطع العلاقات مع الشيطان معناه حرب معلنة على الشهوات؛ إذ جو الشهوات هو أنسب جو لوساوس الشيطان ومكائده.

لقد أضل إبليس أبانا آدم وزوجه حين نصب لهما حبائل الشهوات، ولم يزل بهما حتى أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباساهما، فهتك ستراهما وأراهما سوءاتهما، وظل منذ حسده لآدم عليه السلام يقف لابن آدم على دروب الضلال يهاجمه من قبل شهواته، ويرديه من ثغرة أهوائه.

وما أكثر ما حذرنا ربنا من هذا العدو الحاقد اللئيم، يقول الله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٧]، ومعنى هذا أن الشياطين حلفاء للكافرين يتعاونون معهم على إضلال الإنسانية.

لقد رجم إبراهيم عليه السلام الشيطان فخنس وتوارى وانطلق خليل الله ليذبح صفيه وحبيبه في سبيل مرضاة حبيبه الأكبر، فعلمنا بذلك عليه السلام أن نقطع كل علاقة مع الشيطان، ونجعل حبنا وولاءنا للرحمن.

إنَّ المؤمن إذا رجم الشيطان هتف مع كلِّ حصاة: الله أكبر، ليصك بها سمع إبليس بأنه مهما كبرت في عين ابن آدم الشهوات وتكبر على جانبيها أنصار للهوى، فالله أكبر ورضاؤه

أجل وأعظم، ولعل أعظم منفعة من منافع الحج أن يعود الحاج وقد صفع الشيطان ورجمه وأعلن له بعد اليوم أن ليس له سلطان ولا ولاية ولا طاعة على المؤمن.

وبالمناسبة؛ فإن لإبليس على ابن آدم تلبيسات وحيل وأساليب عجيبة؛ إذ كثيرًا ما يتمثل للإنسان في صورة ناصح أمين شفيق يدعوه إلى العمل الصالح، ثم لا يزال يُسوِّلُ ويُملي له حتى يوقعه في هاوية قاتلة، حتى إذا رآه في قعرها قهقه ساخرًا منه وقال له: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد أورد ابن الجوزي -رحمه الله- في كتابه (تلبيس إبليس) قصة فيها مغزى عظيم، ولعل فيها -إن شاء الله- عصمة من الشيطان؛ لأنها تكشف أساليبه وحيله، وقد رويت القصة عن عمرو بن رفاعة ﷺ عن رسول الله ﷺ، وخلاصتها أن راهبًا من بني إسرائيل كان أعبد أهل زمانه وأبعدهم عن الحرام، وكان في زمانه ثلاثة إخوة صالحين، ولهم أخت صالحة مثلهم، فَطُلب ثلاثتهم للجهاد وتحيروا أين يؤَمِّنونَ أختهم، واستقر رأيهم أن يسكنوها في بيت مجاور لصومعة الراهب، ويستأمنوه في قضاء حوائجها، ورفض العابد واستعاذ بالله، ولكنهم أقنعوه بأن يضع لها الطعام عند باب الصومعة، ويقفل من خلفه الباب، فرضي وظل على ذلك مرة حتى جاءه الشيطان أول مرة فقال له: إن هذه المرأة تنتقل من باب بيتها إلى باب صومعتك لتأخذ طعامها، فما ضر لو خرجت من الصومعة ووضعت لها الطعام عند باب بيتها، فتوفر عليها الخروج إلى الشارع الذي قد يعرضها للخطر فأطاعه العابد؛ لأن كلامه يبدو كلام ناصح، ثم لم يلبث أن أغراه بأن يدخل لها الطعام في بيتها حتى لا يراها الناس وهي تدخل الطعام من خارج البيت، ففعل العابد ذلك ثم أعاد إليه الشيطان فأغراه أن يكلمها ويؤنسها؛ لأن صدرها ضائق بغياب إخوانها، ثم لم يلبث أن أغراه بالجلوس إليها وتعليمها، فلما تحقق الاختلاط والخلوة ثارت في العابد شهوة الحرام، ثم كانت خلوات والشيطان ثالثهم، ثم كانت الطامة الكبرى نتيجة خلو الرجل بالمرأة الأجنبية، فحملت المرأة وولدت طفلاً، وهنا تبيَّن للرجل هول الفضيحة، فَسوَّلَ له الشيطان له أن يقتل الطفل، ولما بدا حزن الأم سَوَّل الشيطان للعابد أن يقتلها ليطمس الجريمة فقلتها ودفنها بجوار ابنها، وأقام عليهما قبرًا.

فلما رجع إخوتها نعاها لهم، وطفق يبكيها ويحمد سيرتها ويترحم عليها فصدقوه، ولكن بعد أيام وسوس لهم الشيطان أنه قتلها، فأخذوا يفتشون حول الصومعة، وإذا حفرة أخرى فلما نبشوها إذا جثة المرأة وجثة وليدها، وقد بدت آثار القتل فاعترف العابد بجريمته، ولما سِيقَ ليصلب جاءه الشيطان وقال سيق له: أكفر بربك، وأشهد أني ألهك أنجيك من القتل، ففعل العابد كما أمره الشيطان عندئذٍ قال له إبليس: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، يقول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۞ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦- ١٧].

(٣) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

حين يذوق المسلم حلاوة الإيمان ويصبح عبدًا صادق العبودية كل همه إرضاء سيده الأكرم ووصال حبيبه الأعظم ﷺ، ثم لا يزال يتقرب إلى مولاه بصنوف من القربات حتى يكتبه المولى في سجل أحبائه، وينظمه في سلك أوليائه، وحين ينال ذلك الشرف الرفيع يصبح سهل الوصول إلى كريم الرحاب، فتفتح له جميع الأبواب، ثم لا يلبث أن يمده ربه بروح من روحه وقوة من قوته، وإذا هو عبد رباني ينظر بنور الله، ويسمع بسمع الله، ويبطش بيد الله، ويمشي برجل الله، وعند هذه المنزلة من مدارج السلوك ومنازل السعادة يستجيب له ربه كلما دعاه، ويمده بالعون كلما استعانه، وهنا يحظى بقرب الرحمن ويستمتع بحلاوة الإيمان.

ولقد تدبرت أركان الإسلام الحكيمة وأوامره العظيمة فوجدتها مناهج تربية روحية توصل المؤمن إلى محبة الله وولايته ليحظى بوعد الله في قوله الكريم: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

والحقُّ أن الحج على وجه الخصوص ما هو إلا تدريب سلوكي رفيع ينظم الحاج في سلك وفود الله منذ خروجه من بيته إلى أن يعود إلى بيته، ويأخذ بيده إلى حيث مقامات الأبرار ومنازل المصطفين الأخيار، وهذا شرح ما عنيناه وتفصيل ما أجملناه.

أولاً: حالما ينوي المسلم أداء فريضة الحج يدخل في دورة تثقيفية دراسية وأخلاقية معًا

ويفرض عليه الحج منهجًا أخلاقيًّا في كل أقواله وأعماله، فهو يبدأ أول ما يبدأ بتوبة إلى ربه نصوح من كل ذنب، ويشرع في قضاء ديونه إنْ كان عليه دين ويرد مظالم من ظلمهم أو يستبيحهم ويستسمحهم، ويرد الأمانات إلى من استودعوه إياها، ويعد نفقة الحج وزيادة عليها إن أمكنه ذلك ليتمكن من الصدقة ويترك لعياله من النفقة ما يكفيهم أثناء غيابه ليعفهم عن الحاجة والمسألة، وإذا كان موسرًا أنفق على الفقراء في بلده وفي مكة والمشاعر؛ لأن النفقة في الحج كالنفقة في الجهاد سواءً بسواء، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف**». هذا إلى أن الصدقة يدفع الله بها البلاء، ويكتب لصاحبها سلامة العودة ويلطف به ويقيه -بإذن الله- مصارع السوء.

ثانيًا: ثم يحرص أن يستصحب معه ما يجمل منظره ورائحته وشكله ويحقق طهارته ونظافته من سواك ومشط ومرآة وصابون جيد وطيب، يجود منها على رفقاه، وما أجمل أن يزيد في الطعام ليطعم السائق ومن لم يحضر طعامًا، فعليه أن يراعي السائق ويحسن إليه وخصوصًا إذا كان ذلك السائق هو صاحب السيارة، وعليه ألا يكثر من المتاع فيثقل عليها ويحتل مساحة كبيرة من حجمها. قال رجل لعبد الله بن المبارك -رحمه الله: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان بمكة، فقال له: أمهلني حتى أستأذن الجمال.

ثالثًا: فإذا توجَّه في سفره المبارك حفظ لسانه بحيث لا يصدر إلا عن الكلم الطيب وحفظ جوارحه بحيث لا تصدر إلا عن عمل صالح ليصعد إلى الله كلامه ويرفع إلى الكريم عمله، فيكثر من تلاوة آيات كريمة تذكره مكارم الأخلاق، يقول الله ﷻ: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ١٩٨].

وفي أثناء ذلك يكون قد اختار رفقاء صالحين يعينونه على الصلوات وبخاصة صلاة الفجر ويؤنسونه في سفره بالخلق الكريم والكلام المفيد والذكر والقرآن والعلم، ثم يختار هو ورفاقه من بينهم أميرًا عليهم يكون أكثرهم حلمًا وأوسعهم فقهًا وعلمًا وأرفقهم بالركب والصحب، وعلى الركب أن يطيع أميره كما على الأمير أن يرفق بكل فرد من الصحاب؛ لأن السفر يكشف معدن النفس، وقد قيل: إذا كان الإنسان طيب في السفر، فهو في الإقامة

أطيب، ومن أثنى عليه رفاقه في السفر فهو كريم الأصل والنفس.

وعلى الحاج أن يودع إخوانه وصحبه وآل بيته ويطلب منهم الدعاء كما يطلبونه منه، ويقول لهم ويقولون له عند الوداع: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، وما أجمل أن يأخذ معه كتبًا من الأدعية المأثورة يدعو بها في المناسك والمشاعر؛ لأن الإنسان قد ينسى كثيرًا من الأدعية فتعينه هذه الكتب على أن يظل وقته مملوء بالدعاء المقبول -إنْ شاء الله.

وفي أثناء طريقه كلها يذكر ربه عند كلِّ معلم من معالمها من جبل أو وادٍ أو مدينة أو قرية، وفي كل وقت من ليله ونهاره، وفي صبحه ومسائه، وفي غدوه وآصاله، متأملاً كل معلم وكل وقت، متصورًا فيها أنها كلها شواهد وحدانية ودلائل قدرة.

رابعًا: وعليه أن يتذكر قداسة رحلته في كل آونة ونبل هدفه، فيلبي تلبية الخاشع المطيع والسائل الملتمس قائلاً كما قال رسول الله ﷺ: «**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**»، وليعلم الحاج أن حجه ليس أمرًا سهلاً فهو ركن من أركان الإسلام، وأنه بالحج يكمل دينه وإيمانه، وأن هذا الحج يثبت إيمانه وتوحيده ويحرسه من مزالق الكفر. قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي: «**من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام فلم يحج، فلا عليه أن يموت يهوديًّا أو نصرانيًّا**». ذلك أن الله يقول: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧]، وفي الأثر: «**إن الله ﷻ يغفر لكل وفده، وقد قيل ما حجوا حتى أذن لهم، وما أذن لهم حتى غفر لهم**».

خامسًا: على الحاج أن يعرف كرامة منزلته عند الله، وأن يكون على مستوى الإكرام؛ إذ من العيب وسقوط المروءة أن يتحبب الله إليك بالنِّعم وتتمقت إليه بالمعاصي، ومن الغش اللئيم أن ترى ربك يباهي الملائكة بالحجيج وأنت تفعل فعل الشياطين، نعم إن من لؤم الطبع أن يحترمك الغني الحميد المنتقم الجبار وأنت تقابله وأنت العبد الضعيف بالاستهانة لأوامره ونواهيه والاستهتار بنعمه وآياديه.

سادسًا: الحاج يعلم أن كل مشعر من المشاعر له عند الله بركة وقداسة، فعليه أن يعرف سبب قداسة كل مشعر ليتمثل تلك القداسة كلما زار تلك الأماكن المباركة، وعليه أن يعلم أن

المسجد الحرام هو مثابة المسلمين وأمنهم ورمز وحدتهم على قبلتهم، وأن له ولزواره وعماره تشريفًا عند الله، وأن العبد مؤاخذ في الحرم حتى على نواياه ومجرد إرادته، فمن نوى في الحرم إثمًا أو ظلمًا ولم يفعله، فإنه يؤاخذ على ذلك وتعتبر مجرد النية جرمًا، لما لذلك المكان الطاهر من حرمة وقداسة عند الله.

سابعًا: وإذا كتب الله للحاج زيارة المدينة المنورة، فعليه أن يعتبر ذلك نعمة من ربه، وأن يتخذ من الزيارة فرصة يستعرض فيها صبر الرسول الكريم ﷺ وخلقه العظيم، وإذا تجول في معالم المدينة الكريمة فرأى جبل أحد والخندق تذكر تضحية رسول الله ﷺ بنفسه وماله ووطنه في سبيل الله، ويدعو له بأن يصلي الله عليه، ويبعثه مقامًا محمودًا، ويجزيه خير ما يجزي نبي كريم مجاهد عن أمته.

(٤) ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾

إنَّ أكره ما يكرهه إبليس وأعوانه آثار الأنبياء والأماكن المقدسة، وذلك لأن هذه الأماكن الكريمة شهدت ذات يوم انتصار الأنبياء على الكافرين وظهور دين الله على كل دين، ثم هي لا تزال مهوى قلوب الصالحين وقبلة أنظار المؤمنين.

ومن أجل هذه الحقيقة ركَّز الكفر حقده على البلاد الإسلامية ليعيث في أقداسها ويدنس برجسه مساجدها معتقدًا أنه بهذا التدمير اللئيم يصرف المؤمنين عن دينهم ويشتت آراءهم ويفسد عليهم قلوبهم، ثم لا يلبث بعد ذلك أن يردهم إلى دين الكفر.

ولقد قرأنا في كتب التاريخ مؤامرات الكفر على مسجد المدينة والحجرة النبوية المقدسة الطاهرة حتى إذا جاء العصر الحديث صبَّ الكفر جام غضبه على المسجد الأقصى مدعيًا أنه هيكل سليمان، ولما آنس من المسلمين ضعفًا وشتاتًا حجَّمَ هجمته الشرسة على الأرض المقدسة المباركة فقهر أهلها ومزقهم في بقاع الأرض ليخلو بالمسجد الأقصى مسرى رسول الله ﷺ وأولى القبلتين فيحرقه أحيانًا وينجسه بالمعاصي أحيانًا أخرى، وكما حوَّل الحقد الصليبي المسجد الأقصى إبان الحروب الصليبية إلى إسطبلات ومرابط خيل ومخازن أسلحة، فقد حوَّله الحقد الصهيوني والصليبي في هذه الأيام إلى حفريات، وفتحوه لكل فاسق وفاسقة

ولكل مجرم ومجرمة يقترفون فيه المعاصي، ويحتقرون فيه تراث الإيمان ونُسَخَ القرآن، وما كان من ذنب للمسجد الأقصى والشعب المسلم من حوله إلا أنهم حافظوا على دينهم وتراثهم وأخلاقهم رغم أنف الاستعمار الإنجليزي المجرم والكيد اليهودي الخطير، حتى إذا فرغ الكفر من المسجد الأقصى واستولى عليه توجَّه إلى باقي ديار المسلمين؛ ليعيث فيها فسادًا فأوقد نار الحروب بين المسلمين ليبتز ثرواتهم ويفرق طاقاتهم ويمزق قدراتهم.

وهذا هو نفس ما فعله إبليس مع أبوينا آدم وحواء، فبعد أن أخرجهما من جنتهما بالقدس لاحقهما إلى جزيرة العرب؛ حيث طاردهما بالمكائد وسنَّ في أبنائهما سنن القتل والمعاصي، ولم يزل كذلك حتى عسكر لإبراهيم عليه السلام في الأماكن المقدسة وبثَّ حبائله من حوله ليصرفه عن إيمانه بربه وصدق ولائه وحبه.

إنَّ تخريب المسجد الأقصى وحرقه وهدم أساسه تهديد وإرهاص بالتآمر على الحرمين الشريفين، ومن هنا فعلى كل المؤمنين بالله وبخاصة حجاج بيت الله الحرام أن يتخذوا من لقائهم العظيم في رحاب البيت الحرام والمسجد النبوي فرصة ذهبية للرد على الكفر بضربة قاصمة كتلك التي تلقاها في بدر والأحزاب والفتح والقادسية واليرموك وحطين وعين جالوت.

إنَّ على الحجاج أن يتذكروا وهم في منازل الوحي الشريف مكائد الكفر وحبائله ومخططاته وأهدافه تلك التي حذرنا ربنا منها، فقال جلَّ من قائل: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ [البقرة:١٠٩]، ويقول عز وجل: ﴿**وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

إنَّ الكفار لن يقر لهم قرار ولن تهدأ لهم ثائرة حتى يردونا عن الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧]، وما دامت نوايا الكفر قد افتضحت وأعلن عن مخططه الإجرامي الرامي إلى سحق الإسلام من النيل إلى الفرات، فإن على المسلمين والقادة بخاصة أن يجعل أعظم بند في جدول حجهم لقاءات

حافلة على مستوى القادة والشعوب يبحثون فيها دحر الكفر عن مقدسات الإسلام وإنقاذ المسجد الأقصى من براثن الأعداء اللئام، وما أجمل أن تكون اجتماعات القادة المسلمين في بيت الله الحرام أو في مسجد النبي -عليه الصلاة والسلام، وليس في هذا بدعة؛ لأن رايات الفتوح كان معقدها في المسجد طيلة العهد النبوي وعهود الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم.

وحين يجتمع القادة المسلمون في الحرمين الشريفين على نوايا الإخلاص والصدق وعلى كلمة الدين والحق، فإن غيرة الإيمان تثور في عزائمهم؛ لأن منظر الحرمين يذكرهم كيف جمع الإسلام شتات العرب وبعث فيهم روحًا من قوة الله بعد أن كانوا في الجاهلية أشتاتًا وأوزاعًا يضرب بعضها رقاب بعض.

ولقد أثبت التاريخ عبر حقبه المتتالية أن العرب لم يقدر على توحيدهم إلا الإسلام، وأن أي مبدأ غير الإسلام لم يزدهم إلا عداءً وشتاتًا، ثم إن اجتماعهم في المسجد يحيطهم بسور شامخ من أمجاد الإسلام وفتوحاته وأخلاقه، فتتقارب القلوب التي تآمر الكفر عليها، فمزق إخاءها وصفاءها، ليحطم على صخر التناحر قوتها ووحدتها.

إنَّ مؤتمر الحج الأكبر مخيف للشيطان، فما رُؤِيَ الشيطان أذل ولا أخزى ولا أضعف منه في يوم عرفة وفي لقاءات المؤمنين؛ لأنه يرى ضعف حيلته وانهيار قوته واندحار جنده في وجه ذلك السد الأعظم من عزائم الإيمان وطاقات المؤمنين وعظمة الإخاء.

وإذا كان ربنا ﷻ قد شرع الحج للمؤمنين ليشهدوا منافع لهم، فإن أعظم منفعة يمكن أن يحققها الحج لأمتنا في هذه الأيام هي أن يتخذ قادتهم من الوسائل ما يرفع فيهم أعلام الجهاد، ويبرم لأمتهم أمر الرشاد، ويمحو من صفوفهم أهل النفاق والإفساد ليقاتلوا الكفار كافة كما يقاتلوننا كافة، مبتدئين جهادنا بالذين يلوننا منهم ألا وهم اليهود وأعوانهم من الصليبيين، مستجيبين لنداء الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة: ١٣٢].

إنَّ العدو يعاملنا بغلظة ونراه عيانًا يخطط لاغتصاب أوطان الإسلام وقتل عقيدته،

فلماذا لا نستفيد من حجنا وحدة الكلمة تحت لواء الجهاد، وننتهز مؤتمر الملايين من المسلمين وقادتهم لنلقن اليهود درسًا بأن إسلامنا الذي أعزنا الله به أول مرة قادر على جمعنا وتأليف قلوبنا في معركة اليوم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، ولتكون العزة كما أخبرنا ربنا لله ولرسوله وللمؤمنين.

العلاقة الوثيقة بين الحج والجهاد

لاحظ المفسرون لسورة البقرة أن الله ﷻ ذكر صوم رمضان في خمس آيات كريمات ثم أتبعها بآيتين، أولاهما تحذر من الرشوة والغش والغلول وأكل الحرام، والثانية تعلِّمنا أن نضبط أوقاتنا في صومنا وحجنا وتعاملنا، وأن نتعامل مع الناس في وضوح وصراحة بلا لبس ولا عوج ولا التواء، وهاتان الآيتان ليستا بعيدتين من الصيام؛ لأن الصيام والأخلاق متلازمان، ثم مضى القرآن الكريم ليتحدث عن الحج فذكر الحج في ثمان آيات، ولكنه قبل أن ذكر الحج تحدَّث عن الجهاد في سبيل الله وقتال المشركين في شدة جارفة وخصوصًا إذا كانوا هم البادئين بالعدوان.

وتساءل المفسرون: لماذا اتخذ القرآن هذا الترتيب، فذكر الصوم ثم أتبعه بخلاصة للأخلاق، وذكر الجهاد بعدئذ وأتبعه بذكر الحج؟ ولماذا لم يتحدَّث القرآن عن الحج بعد الصوم مباشرةً، فيوالي بين ركني الإسلام، وبهذا يكون السياق منسقًا ومنسجمًا؟!

والحقُّ أن إثبات آيات الجهاد بين الصوم والحج فيه إشارة عظمية البلاغة، وتعد في علم المعاني في قمة البلاغة ومطابقة الكلام لمقتضى حال السامعين؛ لأنه لو ذكر الحج بعد الصوم وذكر الجهاد بعدئذٍ لفهم المستمع أو القارئ أن الجهاد عمل مستقل عن الصوم والحج، وليس هذا هو المقصود؛ لأن الجهاد هذا الثمرة العظمى للعبادة، فالصوم من دروس الجهاد وتدريب عليه والحج كذلك تدريب على الجهاد وهو مقدمة له وإعداد.

ومن هنا فالسياق بهذه الطريقة هو في أعلى قمة الاتساق والتنسيق والانسجام؛ لأن توسط الجهاد بين الصوم والحج يوحي بأن الجهاد هو سنام الإسلام وذروته، وأنه الهدف

المنشود من كل العبادات، وأن الصلاة والصوم والزكاة والحج ذات وظيفة واحدة ألا وهي تدريب الأمة المسلمة على التضحيات والوحدة الأخوية القوية تحت لواء الجهاد المخلص الذي هدفه أن تكون كلمة الله هي العليا.

إنَّ كُلا من الجهاد والحج رحلتان إلى الله ﷻ فالحاج والمجاهد شعارهما واحد، ﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات: ٩٩]، وكلاهما ملبٍّ لنداء الله -تعالى- ومضحٍّ في سبيله ﷻ، ولعل رسول الله ﷺ يشير إلى هذه الحقيقة حين قال فيما رواه البخاري: «**أفضل الجهاد حج مبرور**»، وقال فيما رواه أحمد: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل بسبعمائة ضعف**».

ومن هنا؛ فإن الحاج الموفق المقبول -إنْ شاء الله- هو الذي اتخذ من حجه مدرسة لتلقي دروس الجهاد والتدرب على عظيم التضحيات وقهر دواعي الشهوات، وبهذا يحقق الحجيج ما عناه ربهم -جلَّ ثناؤه- في قوله تعالى: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ**﴾ [الحج: ٢٨].

لقد قرن رسول الله ﷺ بين الحج والجهاد في كثير من أحاديثه، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «**إيمان بالله**». قيل: ثم أيّ؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»، قيل: ثم أي؟ فقال: «**حج مبرور**».

وفي صحيح البخاري أن عائشة -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لكن أفضل الجهاد حج مبرور**».

وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**الغازي في سبيل الله والحاج والمعتمر وفد الله، دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم**».

وفي الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة؛ إذ وقع عن راحلته فأوقصته، أي: دقت عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه بثوبه ولا تخمروا رأسه ولا تحنطوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيًا**».

ولم تكن مصادفة أن ذكر النبي ﷺ المسجد الأقصى في معرض الحج، ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام وجبت له الجنة**».

وواضح أن في الحديث إشارة بأن على المسلمين أن يعرفوا تلك الرابطة المقدسة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ومن ثَمَّ أن يعملوا بكل قوتهم لحفظه كخط دفاعي قوي أمام الحرمين الشريفين.

وقد ذكر رسول الله ﷺ المسجد الأقصى، فقال كما جاء في سنن البيهقي: «**النعم المصلى في أرض المحشر والمنشر، وليأتينَّ على الناس زمان ولقيد سوط خير له من الدنيا جميعًا**»، وهو يعني عليه الصلاة والسلام بأن الأرض حول بيت المقدس سوف تصبح غالية أغلى من الدنيا جميعًا، ويزدحم الناس حول القدس بحيث تصبح رؤيتها أُمنية.

إنَّ هذه النصوص الكريمة تشير إلى أن ثمة علاقة قوية واضحة بين الحج والجهاد والمسجد الأقصى، والحقُّ أن الحج والجهاد والمسجد الأقصى أنوار من مشكاة واضحة إذا ذكر واحد منها ذكر الآخر، وكأن المسلمين مطالبون في كلِّ حج أن يطمئنوا على المسجد الأقصى.

ويبدو من سياق الأحاديث نبوءة كريمة بأن الكفر سيجعل المسجد الأقصى هدفًا لهجومه وعدوانه، وأن الصليبية والصهيونية لن يقر لهما قرار حتى تدمرا المسجد الأقصى، وذلك ما حدث في الحروب الصليبية قديمًا ومكائد الصهيونية وغدرها حديثًا.

وما دام الحج والجهاد متلازمين، فما أعظم أن يكون حج المسلمين مقدمة لخوض جهادهم في سبيل الله، وقد رأينا كيف اقترن الحج بالجهاد في أحاديث رسول الله ﷺ، ولا غرو فالحج جهاد؛ لأن فيه منذ اللحظة الأولى بعد نيته إحرامًا يُحرم فيه الحاج على نفسه الزينة، ويتوجه إلى رحاب ربه أشعث أغبر، ثم إن فيه الإتقان في سبيل الله، وفيه الرحلة الخالصة إلى الله، وفيه رياضية للنفس على تحمل المشاق والزحام، وفيه إخلاص النية لله وقطع علائق الشيطان وسد ذرائعه وفي مقدمتها الهوى والشهوات.

والحج بعد هذا وقبله مكارم أخلاق ووحدة أحباب وصدق عقيدة، وتلك أمور عظيمة أهملناها فخسرنا فيها معارك الشرف، وشهد كل المراقبين السياسيين والعسكريين أن هزائمنا كانت أخلاقية وعقيدية؛ لأن السلاح لم يكن ينقصنا أثناء القتال، ولكن الشيء العظيم الذي أعوزنا أثناء القتال كان العقيدة الصادقة التي هي أقدر قوة على توحيد صفنا وحراسة أخلاقنا.

شرف المؤتمرات بشرف أهدافها

إنما يكون شرف المؤتمرات بشرف أهدافها، فلرب اجتماع تحفه الملائكة بأجنحة الرضا، ولرب مؤتمر تعمره الشياطين، وبهذا المقياس يكون أشرف مؤتمر تشهده الكرة الأرضية، بل وتشهده ملائكة السماء وهو موسم الحج؛ لأن أهداف الحج بفضل الله هي أسمى الأهداف، وكيف لا وقد حددها ربنا ﷻ في محكم كتابه فقال: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ [الحج: ٢٨].

ومضى الحق ﷻ بعد ذلك يبيِّن أن من أهداف الحج أن نطعم البائس الفقير، بل وأن نطعم القانع والمعتر، وأن نعظم حرمات الله وشعائره ونشكره ﷻ على ما وهب لنا من نعمه.

وعلى الجملة، فحجاج بيت الله الحرام قد اجتمعوا في رحاب بيته لتحقيق توحيد الله وتوحيد كلمة المسلمين وتحقيق المساواة وبذل المعروف وتعظيم الحرمات والمشاعر والتشاور في كلِّ ما يعود على المسلمين من منفعة.

إنهم لم يجتمعوا لاستعباد الناس واستعمار بلادهم ومصادرة أموالهم وحرياتهم لذا كان مؤتمر الحج الأكبر هو أشرف اجتماع تشهده الإنسانية على كوكب الأرض.

إنَّ الحجاج وفود الله وفدوا على أكرم كريم وأنزلوا حوائجهم بخير مسئول وأعظم مجيب وطابوا وطاب ممشاهم وبوركت رحلتهم بأسمى الأهداف والنوايا.

أولاً: أما وقد انتهى ضيوف الرحمن من أداء مناسكهم وقضوا تفثهم وأوفوا نذروهم وطافوا بالبيت العتيق، فإني أوجه إليهم كلامًا مودعًا مواكبهم المباركة وقل لمثلهم أن يودع ومذكرًا لهم؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين.

أخي الحاج: إذا أردت أن تعرف هل قُبِلَ حجك وكرمت عند الله وفادتك، فانظر ما تركته رحلة الحج في نفسك، وتسأل: هل تعلمت مخافة الله على كل أحوالك؟ وهل تعودت التزام الحق ولو على نفسك؟ وهل ملأت قلبك بحب الله ورسوله والمؤمنين؟ وهل علمك الحج أن تضحي في سبيل الله وتتحمل الآلام في مرضاته؟ وأخيرًا هل قل حرصك على الدنيا وشحك بها فلم تجعلها بعد اليوم أكبر همك ومبلغ علمك، إذا كانت الإجابة عن هذه

بالإيجاب، فلتفرح بفضل الله ورحمته؛ لأن هذا أفضل الكسب وأعظم الخير.

ثانيًا: تذكر مشاعر الحج التي زرتها واستحضر صورتها في شغاف ضميرك؛ لأنها نعم الموقظ للمشاعر والمذكر بالفضائل، وكيف لا وهذه المشاعر هي سجلات أمجاد وربوع أخلاق جليلة ومسارح ذكريات نبيلة.. إنَّ البيت الحرام الذي حججت إليه وطفت حول كعبته وصليت في غالي رحابه هو أول بيت لله تشرف بالعبادة الجماعية لربِّ هذا الكون ﷻ.

الله أكبر!! كم هفت إليه قلوب الصالحين، وحَطَّتْ في رحابه قوافل المؤمنين، وعبقت مغانيه بشذى الدعاء، ترسله أفواه وضيئة طاهرة، كلمًا طيبًا يصعد إلى الله كأنه بخور الفردوس منبعث من نوافح الرضا والقبول؟!

الله أكبر!! كم نضحت من حوله دموع التائبين، وترددت في جنباته زفرات الأوابين؟!

ثالثًا: وتذكر أخي الحاج مسعاك بين الصفا والمروة وما بينهما من مسافة طويلة وأنك سعيتها على أرض مبلطة مظللة مطمئن غير والهٍ ولا مروع، لكن أمك هاجر ركضت أشواطها السبعة على أرض وعرة وهي مروعة على ابنها الظمآن المشرف على الموت، لكنها رغم ذلك كانت مؤمنة واثقة برحمته مؤملة فرجه القريب، فتجد فرحتها حين نزل الفرج من عند الله ونبع الماء من تحت قدم الوليد المبارك، فأروى العباد وعمَّر البلاد.

تذكر -يا أخي- درس السماء للأرض بأن الكريم ﷻ لا يخيِّب قاصديه ولا يرد سائليه، وأنه إذا أمر فأمره الحق وقضاؤه الحكمة والعدل.

لقد كانت هجرة تلك الأم ووليدها مأساة في ظاهرها، ولكنها حين علمت أنها بأمر الله أيقنت أنه ﷻ لن يضيعها وطفلها، فكان أن عمرت مكة وارتوى أهلها، وقدر للوليد الذي أشرف على الهلاك أن يكون جد محمد ﷺ، وللأم الوالهة أن تصبح جدة أشرف الخلق ﷺ وإمام الدنيا وصاحب الشفاعة العظمى، فيا لها من حكمة باهرة وقدرة قادرة، ورواية ماجدة خالدة أولها شيخ يسكن صاحبته وطفله بوادٍ غير ذي زرع، وختامها خاتم الأنبياء منحدرًا من أشرف الأصلاب وأطهر الأرحام.

رابعًا: الأسوة -يا أخي الحاج- لا يلتمسها أمثالك في شرقي يلحد في آيات ربه ولا غربي غارق في مستنقع ذنبه.. إنَّ قدوة المؤمن -يا أخي- هو رسول الله ﷺ الذي قصَّ الله

عليه أنباء الرسل ثم قال له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، واقتدى بهم رسول الله ﷺ، فجمع في أخلاقه كل فضائل الرسل، واجتمع له في كتاب كل مناقب الكتب المنزلة، فكان أكرم رسل الله، وكان الكتاب الذي أنزل عليه مهيمن على كلِّ الكتب السماوية، وأمرنا ربنا ﷻ أن نجعل محمدًا ﷺ أسوتنا، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أمرنا ﷻ أن نتأسى بإبراهيم حنيفًا، ومعنى كلمة (حنيفًا) أنه كان مقيمًا وجهه للدين القيم غير ملتفت لأي شرك، ولا غرو فمحمد ﷺ بعث بملة إبراهيم الذي سمَّانا بالمسلمين من قبل، وإبراهيم خليل الرحمن كان أشبه الرسل بمحمد ﷺ، فلا عجب أن يأمرنا ربنا بالاقتداء بإبراهيم، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، فما أجمل أن تعود -يا أخي الحاج- وقد أعرضت عن كلِّ تقاليد الكفار واتبعت سبيل الحنفاء والأبرار.

خامسًا: وأخيرًا تذكر -يا أخي الحاج العائد- أن أمتنا الآن تعيش مرحلة ضياع انتهزتها قوى الشر، فتداعت علينا كما تتداعى الأكلة على قصعتها، ودنست تراثنا وعاثت في أقداسنا، ونحن كثير، ولكننا غثاء كغثاء السيل، لما ابتلينا به من الوهن الذي أوقعنا في حب الفانية وكراهية الموت، والربوع الغاليات التي زرتها شهدت أعظم نماذج الجهاد والتضحية متمثلة في جهاد محمد ﷺ، ذلك الذي علَّم الدنيا كلها روائع الصبر والاحتساب واحتمال الأذى، كذلك تذكرك بجهاد إبراهيم عليه السلام ذلك الذي همَّ في مرضاة ربه أن يذبح ولده الحبيب وصفيه البر المطيع، وحسبك أن تعلم أنه تله للجبين حتى لا يرى أثناء الذبح وجهه الحبيب الوسيم، فيعطف عليه ويكف عن ذبحه، ثم لما أدنى عنقه من السكين تذكر أن هذا الغالي سيكون كفنه صعبًا إذا ذبحه بملابسه، فخلع عنه القميص حتى لا يتلوث الكفن بالدم، ونظر بين قدميه ليضع القميص وإذا ذبح عظيم وفداء كريم وهاتف يهتف به أن يا إبراهيم قد صدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نجزي المحسنين.

(١) آداب السفر

في هذه الأيام المباركات تكثر الأسفار لقرب الموسم المبارك ومقدم الحجيج، ومن أجل ذلك خصصت هذه الحلقة لآداب السفر كما ورد في كلام النبي ﷺ وفي سيرته وسنته لعل الله يبارك للمسلمين في أسفارهم ويحفظهم في حلهم وترحالهم، ويحميهم من الأسفار الآثمة والنوايا القاصرة.

أولاً: من آداب السفر أن يختار المسافر رفقة كريمة يعينونه على العبادة، ويوقظونه لصلاة الفجر، ويساعدونه إذا اعتل، أما من يسافر وحده فلا يلومن إلا نفسه إذا تجهمت له الطريق ولم يجد في الشدائد عون الصديق، قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**لو أن الناس يعلمون من الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده**».

وروى أبو داود والترمذي النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب**»، وهو يعني أن الراكب والراكبين يعرضان أنفسهما لمخاطر الطريق، وربما أصيبوا ففتنتهم الشياطين، أما حين يكون المسافرون ثلاثة من الرفقة، فهم عندئذٍ ركب أي قافلة مباركة متعاونة على الخير.

ثانيًا: يجب أن يكون للقافلة أمير مؤمن حكيم رفيق عادل؛ لأن قوم بلا قائد يكونون نهب للخلافات والغوغائية وشتات الرأي والجدل، فالإسلام دين الانضباط والنظام والتعاون.

ثالثًا: من آداب المرأة المسلمة ألا تسافر إلا مع ذي محرم، وألا تخالط الرجال أو تخلو بهم مهما طال السفر وبعدت الشقة، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم**». فقال رجل: يا رسول الله، إنَّ امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال له الرسول الكريم: «**انطلق، فحج مع امرأتك**».

رابعًا: وعلى المسافر أن يعتني بصحته ليقوى على وعثاء السفر، فعليه ألا يصوم في السفر وحالًا يقضي مأموريته عليه أن يعود إلى أهله لينعم في كنفهم ويستريح من متاعب السفر.

خامسًا: وعلى المسافر أن يطلب الدعاء من أهله ومن الصالحين، ففي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يأتيه العازمون على السفر فيدعو لهم ويقول: «**زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسَّر لك الخير حيثما كنت**».

سادسًا: وعلى المسافر أن يداوم الذكر والعبادة في السفر، وأن يشغل لسانه بذكر الله، كلما تقلبت به الطريق بين سهل ووعر ومرتفع ومنخفض، وفي الحديث الذي رواه مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل والولد**»، **وإذا رجع قالهن وزاد قوله: «آيبون تائبون لربنا حامدون»**.

سابعًا: وينبغي على المسافر أن يجلس إلى العلماء قبيل سفره، ويطلب إرشادهم ووصاياهم؛ ففي الحديث الذي رواه الترمذي أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني، فقال له: «**عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف**»، فلما ولى الرجل قال ﷺ: «**اللهم اطو له البعد، وهوِّن عليه السفر**».

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا السفينة أن يقولوا: ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** [هود: ٤١]، ثم يتلو قوله تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [الزمر: ٦٧]».

ثامنًا: هذا، والمسافر المؤمن يكثر الدعاء لنفسه ولأهله ولإخوانه؛ لأن دعوة المسافر تستجاب بإذن الله لما يعانيه من بُعده عن أهله وتعبه وانكسار قلبه، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «**ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**».

تاسعًا: وعلى المؤمن قبل سفره أن يزور أعزاءه ليودعهم ويودعوه ويقولوا له: «**نستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**»، وهو الدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ للمسافرين من أصحابه ولجيش المسلمين.

عاشرًا: وإذا كتب الله للمسافر سلامة العودة، فعليه ألا يطرق أهله ليلاً حتى لا يزعجهم ويشتت نومهم، ولكن يطرقهم بالغداء أو بعد العصر، ثم عليه إذا وصل أن يبدأ بالمسجد قبل أن يدخل بيته فيصلي فيه ركعتين.

حادي عشر: وإنَّ من أهم آداب السفر أن يصحب المؤمن في قلبه أطهر النوايا، فيجعل سفره لله أو لما يرضي الله من الرزق الحلال أو زيارة الصالحين أو الحج أو العمرة لينال بصدق نيته مثوبة الله وكريم أجره؛ إذ الأعمال بالنيات، ولكلِّ امرئ ما نوى.

ثاني عشر: إن من يسافرون في الصيف طلبًا للجو المعتدل والمنتجع السياحي يحملون في أعناقهم أمانة الله ألا يخالطوا العصاة ولا يوردوا أماكن الفاحشة، ولا يتجولوا بأولادهم وبناتهم في مواطن الريبة والمعصية، عاملين بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم: ٦]، وقول رسول الله ﷺ: «**كلكم راعٍ مسئول عن رعيته**».

(٢) آداب السفر

السفر نشاط إنساني قد لا يستغني عنه إنسان، وهو في الوقت نفسه ضرورة حيوية قد يفرضها طلب العلم أو الرزق أو صلة الرحم، وقد ندب ربنا ﷻ إلى السفر الذي يوسع الأفق ويفيد الاعتبار، قال جلَّ من قائل: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الأنعام: ١١]، وقد كرَّر ﷻ الحث على السفر في القرآن في بضع عشرة آية كريمة بصيغ متنوعة، كقوله ﷻ: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [محمد: ١٠]، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الروم: ٩]، وقوله: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ [الروم: ٤٢]، والسبب أن السفر يطلع الإنسان على المزيد من ملكوت الله، فيزيده بذلك يقينًا وإيمانًا، قال الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٥].

والسفر إذا كان لطلب الحلال من الرزق أو المفيد من العلم، أو الجهاد في سبيل الله، أو زيارة الصالحين، أو توسيع الأفق والاعتبار.. كان عملاً صالحًا يجعل المسافر ذا منزلة عند الله تستجاب دعوته، ويكتب إذا توفاه الله مع الشهداء.

وهذه بعض الأحاديث الكريمة في آداب السفر نسوقها لكلِّ مسلم تعوَّد السفر أو يستعد له:

١- قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**».

٢- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن الناس يعلمون ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده**».

٣- وروى الإمام مالك وأبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب**».

٤- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا خرج ثلاثةٌ في سفر فليؤمروا أحدهم**».

٥- وفي صحيح الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ نهى من ينام ليلاً وهو مسافر أن يبيت في الطريق؛ لأنها طرق الدواب ومأوى الهوام بالليل، وألا يعدوا المنازل.

٦- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة وليس معها ذو محرم**».

٧- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ نهى عن ركوب البحر إلا لحج أو عمرة أو غزو؛ لأن تحت البحر نارًا.

٨- وذكر البخاري أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد من سفر وخرج إليه صبية من أهل بيته أردف بعضهم بين يديه وبعضهم خلفه.

٩- وروى الإمام أحمد أن النبي ﷺ مرَّ على قوم وهم وقوف على دواب ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فربَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله**».

١٠- وفي صحيح الإمام البخاري أن رسول الله ﷺ كان إذا عاد من السفر وأشرف على

المدينة قال: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**».

١١- وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا**»، ولأحمد أيضًا: «**ما من خارج يخرج من بيته إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك وراية بيد شيطان، فإذا خرج لما يحب الله ﷻ اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإذا خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته**».

١٢- وجاء أن رسول الله ﷺ قال: «**ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعها عندهم حين يريد سفرًا**»، وأن رسول الله ﷺ كان يودِّع إخوانه إذا سافر ويقول لمن يخلف: «**استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه**»، وقد يقول: «**استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك**».

١٣- وروى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال لعمر وهو يودِّعه: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»، وكان عمر ﷺ يقول كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا.

١٤- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبَّر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوِّن علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في الأهل والمال**».

أولاً: السفر سلاح ذو حدين، فيكون بعض السفر ثوابًا وقربى إلى الله، ويكون بعضه إثمًا وبعدًا عن الله، ولذا كان أول أدب السفر أن يكون سفرًا مفيدًا في طلب العلم أو الرزق أو عمل الخير، ومن سافر على نية معصية الله كما يفعل في هذه الأيام بعض من لا خلاق لهم، فرفيقه الشيطان ومصيره الخسارة والخذلان، إنَّ الذي يسافر ليعصي الله إذا أتته مصيبة الموت مات ملعونًا؛ لأن المعاصي تنقص الإيمان وتلطخ القلوب بران الذنوب.

ثانيًا: ومن آداب السفر هذه المجموعة من الفضائل التي تجعله بأمر الله سفرًا مباركًا:

فمن ذلك أن يرد من أراد السفر مظالم الناس، ويقضي ديونه، ويودِّع الأهل والأصدقاء،

ويطلب منهم صالح الدعاء، ومن ذلك أن يختار الرفقة الصالحين في السفر؛ لأن المرء قوي بأخيه، ولأن الرفقة الصالحة تعين على الخير، وتحمي بإذن الله من الشر، ومنها أن يكثر الأدعية في كلِّ أحوال السفر، فيدعو بالأدعية المأثورة عند الركوب، وإذا أدركه الليل، أو نزل منزلاً، وإذا أشرف على قرية، أو أدركه السحر، وإذا علا شرفًا أو هبط واديًا أو ركب سفينة، ومنها أن يستصحب معه ما يفيده كالأدوية والضمادات والسواك والمشط والمرآة، وما يحدد القبلة، وأن يزوَّد ببعض الطعام وعذب الشراب.

ومن آداب السفر أن يؤدي الصلوات ويتحرى أوقاتها، ولا بأس أن يقصر ويجمع واثقًا بعطاء الله وعفوه.

ومن آداب السفر إذا أقام المسافر ليلاً أن يبتعد عن الطريق وعن الجحور، وأن يحذر الأفاعي والهوام، وإذا كان المسافرون جماعة؛ فعليهم أن يؤمروا أحدهم حتى لا يضيع وقتهم بالجدال.

ومن آداب السفر ألا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، وألا تخلو فيه بأجنبي.

ومن آداب السفر أيضًا أن يكرم ركوبته ويتفقدها بما يصلح شأنها سواءً أكانت حيوانًا أو سيارة.

ومنها أن يصلي ركعتين قبل السفر مباشرةً ويدعو الله ﷻ بالتسهيل وبدعاء السفر الوارد في الصحيح.

وإذا عاد من السفر واستقبله الصبية أن يركبهم في سيارته، ويرحب بهم ويفرحهم، وألا يطرق أهله بليل؛ لأن ذلك يفوِّت على الصبية فرحتهم، ولا يتيح لزوجته أن تصلح من شأنها، ولعل أعظم آداب السفر الابتعاد عن معصية الله، والإكثار من فعل الخير.

***

آداب الحـــج

الحج دورة دراسية دينية وعلمية وأخلاقية ينتظم فيها الصالحون، فيخرجون منها بإذن الله وقد اكتسبوا منافع لا تحصى، وقد سبق أن أسلفنا أن أركان الإسلام جميعها لها ثلاثة أهداف كبرى إذا تحققت كانت العبادة ذات حياة وروح، وإذا لم تحصل هذه الأهداف تحولت العبادة جسدًا ميتًا بلا روح، وتلك الأهداف هي تحقيق كلمة التوحيد وتأكيد وحدة الكلمة وغرس مكارم الأخلاق.

إنَّ كلا من الصلاة والصوم والزكاة والحج توحيد لله وتحقيق لكلمة لا إله إلا الله، ثم هي جمع كلمة المسلمين حول شعار الإخاء والرحمة والمحبة والوحدة، وهي بعدئذٍ دروس إخلاص تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتعود الصبر، وتطهر النفوس من البخل.

أما الحج الذي نحن بصدده؛ فهو كما وصفه ربنا ﷻ موسم أخلاق، يقول ﷻ: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهذه أحاديث كريمة في آداب الحج نسوقها لإخواننا الحجاج سائلين الله لنا ولهم الرحمة والسلامة والقبول والعتق من النار:

- وروى الإمام أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله.. الدرهم بسبعمائة ضعف**».

- وجاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**إذا خرج الحاج حاجًّا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغرز** (أي: الركاب)، **فنادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز، فنادى: لبيك ناداه منادي من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور**».

- وفي الصحيحين: «**إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**».

- وروى الجماعة أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**».

- وفي صحيح رزين أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: عليَّ حجة الإسلام، وعليَّ دين، فقال له رسول الله ﷺ: «**اقضِ دينك**».

- وفي سنن النسائي وابن ماجه: «**الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروا غفر لهم**».

- وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله ﷻ يباهي بالحاج الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا من كلِّ فجٍّ عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم**».

أولاً: كان العرب في الجاهلية يحجون؛ لأنهم كانوا على بقية محرفة من ملة إبراهيم، ولكن طريقتهم في الحج كانت صورة مشوهة، فكان طوافهم حول البيت الحرام صفيرًا وتصفيقًا، فجاء الإسلام وجعل الطواف ذكر ودعاء وخشوع.

وكان سدنة البيت يفرضون على الحاج أن يلبس لطوافه ثوب من ثياب الحمس (أي: قريش وسكان مكة)، وإن لم يحصل على ثوب؛ فعليه أن يطوف عاريًا، فكان بعض الحجاج من رجال ونساء ربما يطوفون حول البيت عراة في منظر لا يرضي الله تعالى، فجاء الإسلام وألغى ذلك المنظر القبيح، فقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١]، واستنكر فعل الجاهلية بالعري أثناء الطواف، فقال ﷻ: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]، ونادى عليٌّ ﷺ في حجة أبي بكر ألا يطوفن بعد اليوم بالبيت عريان.

وكان كثيرٌ من شباب الجاهلية إذا حجوا لم يلتزموا بوقار هذه العبادة وفضائلها، فكانوا يرفثون ويفسقون ويتجادلون ويتنافرون ويتفاخرون بقبائلهم، فجاء الإسلام الحنيف يصف تلك العبادة ويغسل وجهها ليصبح وضيئًا جميلاً، فكان قوله تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومما أصلحه الإسلام من مفاسد فعل الجاهلية في الحج؛ حيث إنه حثَّ الحاج على أن يتزود ما يكفيه من زاد، وألا يعتمد في رحلة حجه على التسول والاستجداء كما كان يفعل كثير من الحجاج؛ إذ يحضرون إلى مكة بلا زاد معتمدين على الشحاذة، فقال تعالى: ﴿**وَمَا**

﴿تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، أي: اجمعوا بين زاد البدن من طعام وشراب وزاد الروح من تقوى وعبادة.

ومما أصلحه الإسلام من أفعال الجاهلية أن ألغى المنافرة والتفاخر بالآباء، وأحل محلها ذكر الله وتعظيمه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وكان لقريش مكان خاص يفيضون منه من عرفات، فمحا الإسلام تلك الأرستقراطية، وقال لهم الله في محكم آياته: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثانيًا: ومن آداب مَنْ أراد الحج أن يَتجرَّد للخدمة في خشوع وإخلاص، وألا يغلو في التأنق والزينة، وأن يحج من مال حلال ونفقة طيبة، وينبذ من قلبه كل رياء وسمعة وتفاخر، ثم عليه أن يتذكر بأعمال الحج ومناسكه وأماكنه ما كان من سيرة إبراهيم عليه السلام وآل بيته، فإذا توجه إلى الحج ذكر هجرة إبراهيم عليه السلام بهاجر وابنها إلى وادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم ليقيموا الصلاة، وكيف أطاع أمر ربه، فلم يتساءل أو يجادل، واستسلم لأمر الله؛ إذ يترك طفله وزوجته وهما أغلى الناس ممتثلاً لأمر ربه.

ثم إذا أحرم وتجرَّد من ثيابه تذكَّر كفنه ومبعثه إلى ربه؛ إذ يقول تعالى للخليقة يوم الحشر: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨].

وإذا لبَّى جعل تلبيته استجابة لأذان إبراهيم عليه السلام بالحج؛ إذ قال له ربه عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

وإذا طاف بالبيت تذكر أنه أول بيت وضع للناس مخصصًا لعبادة الله -تعالى- وذكره، وكيف اندثر فرفع إبراهيم وإسماعيل قواعده بسواعدهما المؤمنة على التقوى وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وإذا صلى بمقام إبراهيم عليه السلام تذكر جلده وهو شيخ على عملية البناء والمشقة في سبيل الله وهو يبني مع ابنه بيت الله المعمور ويرفع قواعده، وأثناء طوافه بالبيت يتذكر أن يجعل

مركز السعي ومنطلق التوجه رحاب الله ﷻ، فإذا سعى تذكر ما تحملته أم إسماعيل -رضي الله عنها- من رهب وخوف ورهق وحزن وهي تركض تلتمس الري لوليدها، وتتحمل ركض تلك المسافة إرضاءً لله الذي جعل خاتمة سعيها ذلك الفرج والفرح.

وإذا شرب من ماء زمزم تصوَّر أن ذلك الماء كان مظهر رحمة الله واستجابة لتضرع أم إسماعيل، فهو بإذن الله شفاء وهو لما شرب له.

وإذا وقف بعرفة تذكر الموقف بين يدي الله يوم تعنوا الوجوه له، وتخر الجباه، ثم إذا رمى الجمار بـ«منى» تذكر أنها تحدٍّ للشيطان وإهانة له وقطع علائقه ورد على مكائده ووساوسه.

أهداف الحج

حين ذكر الله ﷻ حكمة الحج لخصها في إيجاز بليغ، فقال ﷻ: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ**﴾ [الحج: ٢٨]، وقد جاءت كلمة «منافع» جمعًا على صيغة منتهى الجموع، وجاءت نكرة لتفيد الشمول والعموم، وبذلك يكون معنى الآية الكريمة ليحضروا في الحج فيحققوا جميع المنافع التي تصلح شأن المسلمين في معاشهم ومعادهم، في أنفسهم ومجتمعهم، وفي حربهم وسلمهم، وفي سرائهم وضرائهم.

إنَّ بعض الحجاج إذا حدثك عن حجته أدركت من حديثه أنه عاد بحصيلة ضخمة من المغامرات، كيف زاحم حتى شقَّ طريقه إلى الكعبة وقبَّل الحجر، وكيف ناضل حتى حصل على ضعف مضاعف من الطعام والثلج والماء، وكيف كافح كفاح المغاوير، فاقتحم المطاف والطائفين، وترك بعضهم يموج في بعض، ويمضي فيحدثك عن مهارته في احتجاز فراغ حول خيمته، وما كان له من انتصار في مجادلته، وكيف أفحم المناظرين وأسكت المناقشين إلى آخر تلك المغامرات التي لم تخلُ من مشاغبة وشدة وعنف ضاعت معها فضائل الكرم والإيثار واللين والرفق وروح الحب والتعاون على الخير.

وهذه بعض كلمات ومواقف الرسول ﷺ تشتمل على ما يمكن أن يحققه الحج من منافع لأمة محمد ﷺ.

- جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»، وفي الصحيحين أيضًا: «**الحج المبرور** (أي: الخالي من المعاصي واللغو) **ليس له ثواب إلا الجنة**».

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله**».

- وفي صحيح مسلم من الحديث الطويل الذي وُصِفَتْ فيه حجة رسول الله ﷺ أنه خطب المسلمين في مواقف مختلفة من المشاعر، ففي يوم عرفة خطبهم بمسجد نمرة قبل صلاتي الظهر والعصر اللتين صلاهما قصرًا وجمعًا هناك، وخطبهم قبل ذلك عند الكعبة يوم السابع من ذي الحجة بعد صلاة الظهر، كما خطبهم يوم النحر، ثم خطبهم خطبة رابعة يوم الثاني عشر من ذي الحجة.

- ومن حديث لجابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**هذا البيت دعامة الإسلام، فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونًا على الله إنْ قبضه أن يدخله الجنة وإنْ رده بأجر وغنيمة**».

- هذا، وقد كان رسول الله ﷺ كما جاء في أحاديث متفرقة طيلة وقوفه في عرفة محافظًا على الطهارة الكاملة مستقبلاً القبلة معظم الوقت يكثر من الدعاء والاستغفار والذكر يدعو لنفسه ولغيره من المسلمين بما شاء من أمر الدنيا والدين يقرن كل هذا برفع اليدين إلى الله وبحضور القلب وخشية الله، وكان يكثر من قول: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وكان ذكر الله والثناء عليه ربما شغلاه عن الدعاء واثقًا من أن الله ﷻ هو أعلم بحوائج العبد من العبد نفسه، ويقول في هذا فيما يرويه عن ربه: «**إذا شغل عبدي ثناؤه عليَّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**».

- وفي سنن أبي داود والأدب المفرد للبخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**احتكار الطعام في الحرم إلحاد فيه**».

- وروى أصحاب السير والحديث أن النبي ﷺ أرسل عليًّا ﷺ في الحجة التي كان أميرها أبو بكر ﷺ فأعلن على رءوس الأشهاد أنه لا يحج بعد ذلك العام مشرك، وألا يطوف بالبيت

عريان، وأعلن أن كل مشرك لديه مهلة أربعة أشهر ليعود إلى مأمنه في قومه، ثم لا يكون له بعد ذلك عهد رسول الله، ثم قرأ على الناس سورة «التوبة» التي ركَّزت على قتال المشركين وفضحت المنافقين واتسمت بالقوة وخلعت قلوب الأعداء.

- وذكرت الأحاديث الصحيحة والسير ما جاء من أعمال النبي ﷺ في حجة الوداع، وكيف علم الناس مناسكهم وبيَّن في خطبة الوداع الأسس التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي المتكافل من العدل والمساواة والخير.

أولاً: من أعظم آداب الحج أن يحاول كل حاج غاية جهده تحقيق المنافع الكبرى التي ذكرها ربنا سبحانه للحج على كل المستويات الأخلاقية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية في إطار من الإيمان والعمل الصالح.

ثانيًا: لا يجوز أن يمر مؤتمر الحج الأعظم وهو الذي يضم الملايين من المؤمنين وقادتهم دون أن يبحث قضايا المسلمين، وكيف لا وهو أشرف مؤتمرات الأرض وأكثرها عددًا وأطهرها رجالاً، ويقيني أن الدولة المضيفة لوفود الحج تهيئ كل الظروف للقاء القادة والمسئولين والوفود ليكون أمرهم شورى بينهم، وليشهدوا منافع لهم، وليوحدوا تحت لواء الإيمان صفوفهم.

ثالثًا: من المعروف أن رسول الله ﷺ كان عظيم الحنين إلى مكة والمسجد الحرام خاصة، وكان يحلم برؤيتها وزيارة مسجدها ويقلب وجهه في السماء، ويسأل الله ألا يحرمه من ترابها الغالي، ولما أتم الله له فتحها كان أكبر همه أن يحقق منافع الحج فيها ويزيد مسجدها وعماره تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا.

ولقد تمت على عهد رسول الله ﷺ حجتان الأولى بإمارة أبي بكر ﷺ، والثانية حجة الوداع التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه، وقد حقق عليه السلام فيهما أكبر قدر من منافع الحج حين أرسل عليًّا ﷺ في آثار أبي بكر وتحت إمرته ليعلن موقف الإسلام الصريح من المشركين والمنافقين، وليؤذنهم بحرب من الله ورسوله، وليضع حدًّا لعهودهم ومواثيقهم حالما تنتهي مدتها، وليطهر المسجد الحرام من المناظر المؤذية كالتعري أثناء الطواف والتصفيق والصفير حول الكعبة، أما في حجة النبي ﷺ وهي حجة الوداع فقد خطب عليه الصلاة والسلام خطبته

التي رسمت لأمه محمد طريق الفوز والنصر والسعادة ومنهج العدل والمساواة والإحسان.

إلى جانب ثلاث خطب أخرى في ثلاث مناسبات كريمة علَّم الناس فيها مناسكهم بالقدوة الحية والتدريب العملي.

رابعًا: وما دامت الحكمة الكبرى من الحج هي توحيد الصف الإسلامي في ظلال التوحيد الخالص والإخاء المؤمن والأخلاق الفاضلة، فما أجمل أن يعود الحاج برصيد ضخم من مواقف الإحسان وصنائع المعروف ومعاونة الضعفاء، وأن يسأل عن أحوال إخوته المسلمين في شتى أقطارهم، ويتعرف إلى معاناتهم لتظل أمتنا كما أراد الله لها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

أثر الحج في نفوس الحجاج

الحجاج في هذه الأيام المباركات قد انتهوا من أداء مناسكهم وقضوا تفثهم ووفوا نذورهم وطافوا بالبيت العتيق ومضت وفودهم الكريمة في طريق العودة المباركة واثقة بكرم الله وعطائه ومثوبته وحسن جزائه.

أسأل الله أن يجعل حجهم مبرورًا وسعيهم مشكورًا، وأن يرعى إيابهم ولا يصرمهم أحقابهم.

وما دام الحجيج هم وفد الله فهم إذن الله أكرم وفود الأرض؛ لأنهم وفدوا على أكرم كريم ورفعوا دعائهم إلى خير مسئول وأعظم مجيب، فطابت رحلتهم بأسمى الأهداف، لا يبتغون إلا رضاه ولا يطلبون إلا رحمته وهداه، وأملنا في الله أن يستقبلهم في الآخرة مع المتقين المقبولين الذين يقول الله فيهم: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾ [مريم: ٨٥].

وقد رأيت أن أوجه الكلام في هذه الحلقة إلى ضيوف الرحمن مودعًا لمواكبهم وقل لمثلهم أن يودع، ومذكرًا لهم لأن الذكرى تنفع أمثالهم المتقين.

أولاً: إذا أردت -يا أخي الحاج- أن تعرف مقدار القبول لحجك، فانظر ما تركته رحلة الحج في نفسك، واسألها دومًا: هل تعلمت مخافة الله على كل أحوالك؟ وهل تعوَّدت التزام

الحق في كل أقوالك وأعمالك؟ وهل ملأت قلبك بحب الله ورسوله والمؤمنين؟ وهل قل حرصك على الدنيا، فلم تجعلها من اليوم أكبر همك ومبلغ علمك؟ وأخيرًا هل تعلمت من دروس الحج أن تضحي في سبيل الله، وتتطلع في شوق إلى الجهاد في سبيله ونصرة دينه وكتابه وبذل كل غالٍ لإعلاء كلمته؟

فإذا آنست من نفسك استفادة من أيام الله فلتفرح بفضل الله وبرحمته؛ لأنها عندئذٍ أمارة القبول من الله وعلامة الرضا والكرامة، وتلك أجل ما يدخره الإنسان، وأبقى على الدهر من ملك سليمان؛ لأن الحياة الدنيا تموت غدًا والحياة الآخرة لا تموت أبدًا.

ثانيًا: مشاعر الحج التي زرتها وصليت فيها وأسمعتها ذكر الله هي -يا أخي الحاج- سجلات أمجاد ومرابع أخلاق ومسارح ذكريات؛ فالبيت الحرام هو أول بيت من بيوت الله تشرف بالعبادة الجماعية لرب هذا الكون، والتقت من حوله قوافل المؤمنين، وهفت إليه قلوب الصالحين، وجاءته وفود الله رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق.

الله أكبر!! كم لانت صخوره لذكر الله، وخشعت أرجاءه لهتاف الأولياء، وازدان واديه بقسمات التائبين، وعبقت مغانيه بشذا الدعاء منبعثًا من أفواه وضيئة طاهرة يرفع الله منها الكلم الطيب إلى سمائه، كما تفوح نوافح المسك والعود من مجامرها المطهرة.

الله أكبر كم غسلت أرجاءه دموع التائبين، وكم ترددت في جنباته زفرات الأوابين.

ثالثًا: وإذا مر بخيالك طيف الصفا والمروة وما بينهما من مسعى طويل، فتذكر أمنا هاجر -رضي الله عنها- والهة على وليدها مشرفًا على الموت واثقة بربها ومؤملة في وجهه الكريم أن يفرِّج الكرب ويسوق الفرج القريب، فيا لفرحها حين نزل الفرج من عند الله بسقي الناس من تحت قدم الوليد المبارك عليه السلام. هنالك كان درس السماء إلى الأرض بأن الكريم لا يخيِّب قاصديه ولا يرد سائليه، وأنه إذا أمر فأمره الحق وقضاؤه الحكمة.

لقد كانت هجرة تلك الوالدة وابنها مأساة في ظاهرها ولكنها حين علمت أنها بأمر الله أيقنت أنه لن يضيعها وطفلها، وكذلك كان حين عمرت مكة بماء زمزم وقُدِّر للوليد الذي أشرف على الهلاك أن يكون جد محمد ﷺ، وللأم الوالهة في بيئة العمل والظمأ أن تصبح جدة محمد ﷺ صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة.

فيا لها من حكمة باهرة!! ويا لها من قدرة قادرة!! ويا لها من رواية ماجدة خالدة، أولها شيخ يسكن طفله الوحيد وزوجته البرة بوادٍ قاحل غير ذي زرع، وختامها خاتم الأنبياء وسيد الرسل الكرام منحدرًا من أشرف الأصلاب وأطهر الأرحام.

رابعًا: والأسوة -يا أخي الحاج- لا يلتمسها مثلك من شرقي ينكر وجود ربه أو غربي غارق في مستنقع ذنبه. إن قدوة المؤمن أنبياء الله كما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠]، وكما أمرنا القرآن أن نجعل محمدًا ﷺ أسوتنا فقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام حنيفًا يبرأ من كل شرك ومشرك، يقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ**﴾ [الممتحنة: ٤]، ولا غرو فمحمد ﷺ جاء بملة إبراهيم عليه السلام وهو الذي سمَّانا المسلمين من قبل، والحق أن إبراهيم عليه السلام كان أشبه الرسل بمحمد ﷺ كما أخبرنا نبيُّنا في حديث الإسراء والمعراج.

وما أجمل أن يعود حجاج بيت الله حرام فيجعلوا أول أعمالهم نبذ تقاليد الكفار ومبادئهم، ويرسموا لأنفسهم أشرف أسوتين في أبينا إبراهيم عليه السلام وفي رسولنا محمد ﷺ.

خامسًا: نحن الآن -يا أخي الحاج- نعيش مرحلة من الضياع تتداعى علينا وعلى ديارنا وأقداسنا الأمم، ونحن كثير، ولكن حب الدنيا وكراهية الموت جعلتنا غثاء كغثاء السيل، والربوع المباركة الحبيبة التي زرتها هي منازل الوحي على نبيين من أعظم أولى العزم أبيك إبراهيم عليه السلام ورسولك محمد ﷺ، وهما أعظم نماذج التضحيات؛ فتضحيات محمد ﷺ في نشر الدعوة وأداء الأمانة والدفاع عن الإسلام والجهاد في سبيل الله أمور قد علمت معظمها، وأما تضحيات إبراهيم عليه السلام فحسبك أن تتصوره في «منى» يتلُّ صفيه للجبين ويدني من عنقه السكين، وقد أسلم الذابح والذبيح لربِّ العالمين، ويتذكر إبراهيم عليه السلام أن قميص إسماعيل عليه السلام سيكون كفنه، فيخلع عنه القميص كي لا يتلوث الكفن بالدم، وينظر بين قدميه ليضع القميص وإذا ذبح عظيم وفداء كريم وهاتف رحيم يناديه: ﴿**يَا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥].

فاجعلْ -يا أخي الحاج- إبراهيم أسوتك في التضحيات لتنقذ بالجهاد أقداسك التي

تعبث فيها قطعان المجرمين ومسجدك الأقصى الذي تدنس طهره سنابك خيول الكفر والكافرين.

مسئولية الحاج بعد عودته إلى دياره

إذا كانت أعمال الحج وموسمه ومناسكه قد انتهت، وفروضه وواجباته قد كملت وتمت؛ فإن الحاج العائد الموفق تبدأ مسئوليته المقدسة بعد انتهاء حجه وبعد عودته إلى وطنه سالمًا غانمًا إنْ شاء الله.

لقد حضر الحاج دورة مباركة في العبادة والعلم والعمل والأخلاق، وأتاح له الحج أن يخالط إخوانه المسلمين من كلِّ حدب وصوب، وتخرَّج من الدَّورة الإيمانية -بفضل الله تعالى- بحصيلة من العلم النافع والعمل الصالح، وما بقي عليه الآن إلا أن يبلِّغ ما سمعه ويعلِّم ما تعلمه، ويحقق الأهداف والمنافع التي من أجلها فرض الله هذا الركن من أركان الإسلام والعظيمة.

لقد رأى الحاج بأم عينيه أن ثلاثة أمور من أحوال المسلمين هي التي أغرقتهم في حمأة الضياع، ومزقتهم في شتى البقاع، وتعبدت قلوبهم لرخيص المتاع، وجعلتهم غثاء كغثاء السيل، وأوهنت عزائهم بحب الدنيا وكراهية الموت.. هذه الأدواء الثلاثة هي انحراف العقيدة، وتمزق الوحدة، وغياب المنهج الإسلامي في التربية، ولا أغالي إذا قلت بأن الأمر الأول هو بيت الداء وأساس البلاء؛ لأن العقيدة الإسلامية إذا صُحِّحَتْ في القلوب غرست فيها كل الفضائل وعصمتها بإذن الله من كل المفاسد، وإذ ذاك تنضوي القلوب تحت لواء الوحدة المؤمنة والفضائل الإسلامية.

ولذا، فإن وفود الله مطالبة بعد حجها أن تبدأ مرحلة التنفيذ وتطبق العلم على العمل، وتبتدئ بتصحيح العقيدة بحيث ترسم في سلوكها عقيدة صحيحة ثم تأمر به وتتواصى بنشره.

وإني مورد هنا بعض الأحاديث الكريمة في أهمية هذا الأمر سائلاً الله لي ولضيوف الرحمن ولجميع المسلمين إيمانًا لا يخالطه شك، وعملاً لا يحيطه رياء، وثباتًا على كلمة التوحيد والقول الثابت في الدنيا والآخرة:

- جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الْإِخْلَاصِ لله وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ مَاتَ وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ**».

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**».

- وروى الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى: من كان أشرك في عمله لله أحدًا؛ فليطلب ثوابه من عنده، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك**».

أولاً: أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده هي نعمة الإيمان؛ لأن الإيمان تقبل به الأعمال وتغفر به الذنوب، وبغيره لا تقبل حسنة، ومن هنا كان المؤمن أحرص على دينه منه على حياته، فهو يدعو الله ألا يجعل مصيبته في دينه، ويفضل أن يلقى في النار على أن يترك دينه.

ثانيًا: التوحيد في الإسلام هو ألا تشرك بعبادة الله أحدًا، ولو كان رسولاً عظيمًا أو نبيًّا جليلاً أو ملكًا مقربًا؛ لأن الله هو الواحد الأحد له الحمد وكل ما سواه عبد، وإن من أحقر مظاهر الجهل أن ترى إنسانًا يطوف بقبر يبتغي عنده الخير والرزق ناسيًا عظمة ربه وخضوع الخلائق في حجرات جبروته.

ثالثًا: حين تصفو العقيدة في قلوب المؤمنين تصنع منهم على عين الله رجالاً فيهم كل فضائل النفس؛ لأن الإيمان إذا خلص حقَّق في المؤمن الشجاعة التي لا تعرف الخوف والتضحية التي لا تبالي بكل بذل، والجهاد الذي يجعل المؤمن يقهر عشرة من عبَّاد الشيطان، ويهوِّن في عينيه الحياة الفانية، كما يعلمه ألا يحني جبهته إلا لرب السماء موقنًا أن أجله في الكتاب وأن رزقه في السماء.

رابعًا: يقوم بنيان الإسلام على التوحيد، فمن أخلص التوحيد والعمل لله كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، ومن أدخل على أعماله الشرك حبطت وطارت هباءً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ومن هنا فرُبَّ متصدقٍ بريال واحد يجده عند الله كجبل أحد، ورُبَّ متبرعٍ بالملايين لا يرى لها أثرًا في الميزان.

خامسًا: إنَّ ثواب الأعمال عند الله يتفاوت على حسب إخلاصها لوجهه الكريم، فأدنى ثواب الحسنة عشرة أمثالها، ويزيد الثواب إلى سبعمائة ضعف، فإذا ارتقى العبد في مدارج أهل السلوك حتى أصبح عبدًا ربانيًّا يعبد الله كأنه يراه، فهنالك يرزقه بغير حساب، وفي كتاب الله بشرى لأهل التوحيد والاستقامة الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، يعني أخلصوا توحيدهم من كل شوائب الشرك، وسلكوا في حياتهم طريق الفضائل والتقوى لهم بشرى بأن الله ﷻ لا يكتفي في إكرامهم بنعم الجنة، ولكن يدعوهم إلى رحابه، ويعد لهم ضيافة هي أعظم من كل نعيم الجنة؛ لأنه يمتعهم فيها بأجل ما يدعيه ويتمناه أهل الجنان حين يزيل ما بينه وبينهم من الحجب ويريهم ﷻ وجهه الكريم.

سادسًا: حين يصفو التوحيد من كلِّ شرك يصبح للأعمال نورٌ من نور الله -تعالى- فيرى في ساحات القيامة قومًا يسعى نورهم بين أيديهم وبإيمانهم يقودهم إلى الجنة، وينور لهم سبل السلام وطرق الهداية، وأثناء مشيهم في النور يقولون مبتهجين: ربنا أتمم لنا نورنا، واغفر لنا إنك على كلِّ شيء قدير، وتقول لهم الملائكة الكرام: بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك هو الفوز العظيم.

أما الذين دنسوا أعمالهم بالنفاق والشرك فتراهم في الآخرة يتخبطون في ظلام دامس

كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له في نور.

هذه الحقيقة أشار لها القرآن الكريم في سورة «النور» حين ذكر أن الله -تعالى- هو نور السموات والأرض، وذكر بعد ذلك رجالاً أخلصوا دينهم وتوحيدهم لله، وعمَّروا بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه؛ فسبَّحوه فيها بالغدو والآصال ولم يلههم تجارة ولا بيع عن ذكره، فجزاهم ﷻ أحسن ما عملوا، وزادهم من فضله بغير حساب.

وأما أهل النفاق والشرك فذكر أنهم يحشرون عميًا وبكمًا وصمًّا كما كانوا عميانًا عن الإيمان في الدنيا، قال تعالى: ﴿**وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٢].

وذكر سبحانه في سورة «الحديد» أن أولئك المنافقين يستجدون من المؤمنين قبسًا من نورهم ويذكرونهم روابط القربى، فما يشعرون إلا بسور قد ضرب بينهم وبين المؤمنين باطنه الرحمة فيه حيث المؤمنون، وظاهره فيه العذاب حيث الكافرون.

أحكام في ذبح البهائم

إذا أردت أن تذبح ذبيحةً فاعلم أن الإسلام يأمرك في هذا المقام بالرأفة والرحمة ويثيبك عليهما، كما يأمرك أن تتبع الطريقة الصحيحة الزاكية التي بها ينقى اللحم وتجعله نظيفًا، ثم هو يأمرك أن تذكر نعمة الله وتشكره على ما سخَّر للإنسان ورزقه من بهيمة الأنعام، كما أمرك أن تذكر اسم الله على ذبيحتك لتنالها باسم الله البركة والخير.

وهذه أحاديث شريفة تتعلق بذبح الحيوان نذكرها ثم نتبعها بإيضاح لتلك الأحكام:

- روى الإمام مسلم وأصحاب السُّنن عن شداد بن أوس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد شفرته وليرح ذبيحته**».

- وروي أن رسول الله ﷺ أمر بأن تحد الشِّفار[١]، وأن توارى عن البهائم وقال: «**إذا ذبح فليجهز**»، وجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَن نسي التسمية فلا بأس، ومَن تعمد فلا تؤكل**»، أي أن من يترك التسمية متعمدًا أو يذكر اسم غير الله؛ فإن ذبيحته لا تؤكل.

- وفي سنن أبي داود وجامع الترمذي عن أبي واقد ﷺ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ووجد أهلها يحبون أسنمة الإبل، ويقطعون إليات الغنم ويأكلون ذلك، فقال: «**ما يقطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة**».

- وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من إنسان يقتل عصفورًا فما فوقها بغير حقها إلا سأله الله عنها**، قيل: يا رسول الله! وما حقها؟ قال: «**يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي بها**».

- وفي صحيح البخاري عن ابن عباس أنه قال: «ما أعجزك مما في يدك من البهائم؛ فهو كالصيد».

وقال في بعير تردى في بئر: «ذكه من حيث قدرت، وإذا قطع الرأس مع ابتداء الذبح من الحلق فلا بأس ولا يتعمد، فإن ذبح من القفا لم تؤكل سواء قطع الرأس أم لم يقطع».

- وروى أبو داود أن النبي ﷺ نهى عن شريطة الشيطان، وهي الذبيحة تحز جلد رقبتها فقط وتقطعه دون الأوداج ثم تتركها حتى تموت.

- وروى مالك -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا نُحِرَتِ النَّاقَةُ فَذَكَاةُ مَا فِي بَطْنِهَا فِي ذَكَاتِهَا إِذَا كَانَ قَدْ تَمَّ خَلْقُهُ وَنَبَتَ شَعَرُهُ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ذُبِحَ حَتَّى يَخْرُجَ الدَّمُ مِنْ جَوْفِهِ**».

- وفي صحيح البخاري عن كعب بن مالك ﷺ أن جارية لهم كانت ترعى غنمًا، فأبصرت بشاة موتًا، فكسرت حجرًا فذبحتها، فسأل النبي ﷺ فأمره بأكلها.

- وروى مالك -رحمه الله- أن ابن عباس -رضي الله عنهما- سئل عن ذبائح النصارى؟ فقال: «لا بأس بها».

---

(١) الشفار: السكاكين.

- وروى الطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ مرَّ على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: «**أفلا قبل هذا!! أوتريد أن تميتها موتتين؟!**».

أولاً: لا يجوز أكل ذبيحة إلا إذا ذبحت ذبحًا شرعيًّا، ومن هنا فالموقوذة والمتردية والنطيحة والتي أكل السبع بعضها ونبذ البعض الآخر.. كلُّ هذه حرام أكلها، إلا إذا أدركت وفيها روح فذبحت وتحركت بعد ذبحها وسال جميع دمها إلا ما يتخلف في العروق.

ثانيًا: كلُّ ذبيحة يذكر عليها عند ذبحها اسم غير اسم الله حرام أكلها، وهذا أمر يجب أن يتأكد منه في التعامُّل باللحوم المستوردة، فما يجوز أكل تلك الذبائح إلا إذا تأكد المرء أنها ذكيت ذكاة عند شرعية، وأنها لم يذكر عند ذبحها اسم غير اسم الله، أما حين يتوفر هذان الشرطان -وأعني الذكاة الشرعية وعدم الإهلاك باسم غير اسم الله- فهي عندئذٍ حلال؛ لقوله تعالى: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ**﴾ [المائدة: ٥].

ثالثًا: إذا نفرت بهيمة كجمل مثلاً أو ثور أو تردت في بئر فلم تستطع ذبحها جاز لك أن تذكها في غير الرقبة بأن تمد لها آلة حادة فتنحرها أو تجرحها جرحًا عميقًا في الفخذ أو غيره أو تطلق عليها سهمًا (وتسمِّي في جميع الأحوال) لكي تتخلص من الدم، ثم عند الوصول إليها تذبحها من الرقبة ليتسرب ما يمكن أن يكون قد تخلف من دمها، ومثل ذلك ما نمسكه عليك الصقر أو الجارح المكلب؛ فإنك تذكر اسم الله عند إطلاق الجارح ثم تذكي ما يعود به من صيد جريح، وعندئذٍ يكون حلالاً بإذن الله.

رابعًا: الرفق بالحيوان المذبوح مطلب شرعي، فالشفرة تكون حادة مرهقة حتى يستريح الحيوان في أقصر وقت، وعلى الذابح أن يريح ذبيحته فيضجعها على جانبها الأيمن، وألا يجعل الذبح على دفعات، بل يقطع جلد الرقبة من جهة الحلق، ويصل إلى الأوداج فيقطعها في سرعة حتى لا تتألم الذبيحة بكثرة الحزِّ بأداة كالة قد تخنقها خنقًا.

على أنه يجوز في الضرورات أن تذبح بحد حجر أو حافة حادة إذا خشيت موتها قبل تذكيتها، ولا يجوز ذبح الذبيحة إلا من مقدمة رقبتها فما يلي الحلق، فإن ذبحها من فوق الرقبة لم يجز أكلها.

خامسًا: إذا ذبحت بهيمة في بطنها جنينها فذكاتها ذكات جنينها على أنه لا يؤكل جنينها إذا كان صغيرًا جدًّا، أما إذا نضج في البطن ونبت شعره، فإنك حين تخرجه تذبحه من رقبته، ويجوز أن يؤكل مع أنه ذبح ميتًا؛ لأن ذكاة أمه هي ذكاته.

سادسًا: من المستحب ألا تسن السكين على مرأى ومسمع من البهيمة التي ستذبح؛ لأنك بذلك تروعها قبل موتها، ولهذا أنكر النبي ﷺ على الرجل الذي كان واضعًا رجله على صفحة الشاة وقد طفق يشحذ السكين وهي تنظر إليه، وقال له: «**هلا فعلت ذلك قبل هذا**».

سابعًا: من السُّنة أن تسمِّي الله إذا ذبحت وتكبِّره فتقول: باسم الله والله أكبر، وإذا نسيت التسمية فلا بأس إنْ شاء الله، أما مَن تعمَّد ترك التسمية استنكافًا أو كفرًا؛ فلا تؤكل ذبيحته.

ثامنًا: إذا قطع جزء من بهيمة وهي حية كفخذها أو إليتها أو سنام البعير، فما يجوز أكل هذه الأشياء؛ لأن ما يقطع من البهيمة وهي حية يعتبر ميتة.

وقد علمت أن بعض مَن يخصون الدواب قد يأكل الخصية إذا أخرجها، وهذا لا يجوز؛ لأنها تعتبر في حكم الميتة أكلها حرام، وكذلك فإن بعض الناس يقطعون إلية البهيمة من الغنم وهي صغيرة ليتوزع الشحم على جميع جسدها، فيجتمع لديهم كمية كبيرة من إليات الأغنام وقد يستغلونها ويبيعونها كزيوت حيوانية وهذا حرامٌ.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتطهرين الذين يتحرون الطيبات، وينفرون من الخبائث.

***